
يفغيني روداشيفسكي
الغُراب الأسحم
رواية للفتيان
ترجمة: د. عبدي حاجي



يفغيني روداشيفسكي



الغُراب الأسحم

رواية للفتيان

ترجمة: د. عبدي حاجي

مراجعة د. نوفل نيّوف

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PZ10.731.R83 Ghu 2020

Rudashevsky, Eugene

الغراب الأسحم : رواية للفتيان / تأليف يفغيني روداشيفسكي ؛ ترجمة عبدي حاجي ؛ مراجعة نوفل نيّوف. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

ترجمة كتاب: Voron

تدمك: ٩٧٨-٩٩٤٨-٢٥-٦٣٠-٤

1ـ القصص العربية- مترجمات من الروسية- أدب الأطفال. 2- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية- أدب الأطفال. أ- عبدي، حاجي.

ب- نيّوف، نوفل. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الاصل الروسي:

Original title: Voron

طبع الكتاب بموافقة المجلس الوطني للإعلام برقم الطلب MC-03-01-3326202 .

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 8002220



ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف : 579 971 + 2 5995



الغُراب الأسحم

في الرابعة عشرة من عمرك لستَ طفلاً. إنك أكثر فهماً للناس، وأفضل معرفة بهم، وأرهفُ حساسية إزاء الطبيعة. ذهب ديما في رحلة طويلة لصيد السمّور، وفي رأسه فكرة وحيدة، مؤدّاها أنه عندما يَقتل أوَّلَ حيوان سيتغيّر، ويعود إلى المدينة وقد أصبح رجلاً حقيقياً. إن عمّه نيكولاي نيكولايفتش، دليلَه إلى عالم الكبار، يُحسِن قراءة الآثار على الثلج أكثر ممّا يُحسِن هو قراءة كتبه. سيقدِّم المرِح أرتيوميتش، والصيّاد فيتيا، والكلب المرهَف تَمْغا، المساعدةَ والعون للفتى، لكن الاكتشاف هو اللقاء مع الغُراب الأسحم الذي يصعب القبض عليه.

إن عملية اصطياد السمّور التي تستمر أياماً كثيرة هي المغامرة التي لن ينتهي الحديث عنها لزملاء الصف خلال يوم أو يومين. وأجمل لحظة هي عندما يصوِّب ديما بندقيته إلى هذا الحيوان السريع الحركة، ويضغط على الزناد ويصرخ فرحاً «Headshot»، وكأنّ ذلك يجري في لعبة كمبيوتر. هل كان بوسع الفتى أن يتصوَّر أن الإرادة والرجولة لا تنفعان في هذا المجال، وأنه يتعيَّن عليه أن يشاطر زملاءه قصصاً أخرى تماماً؟

يظلّ ديما، شأنه في ذلك شأن كثير من المراهقين الأبطال في أعمال يفغيني روداشيفسكي، معلّقاً بين عالم الطفولة وعالم الكبار. ففي قصة «الغُراب الأسحم»، كما في قصّتَيه الأُخريين «مرحبا، أخي بزو!»، و«أين يذهب كومكان»، يُجري الكاتب حواراً صامتاً بين بطلين رئيسين هما الإنسان والحيوان. ثمة شيء مشترك يصعب التقاطُه في سلوك هذين «المتسامرَين» وفي مصيرهما. قد يكون هذا ضرورة لاجتياز لحظة صعبة من أجل الحياة القادمة، وقد يكون عزلةَ الطير الذي انفصل عن السرب، عزلة الكائن الذي غادر عشَّه الدافئَ المريحَ للمرة الأوّلى.

يحافظ الكاتب بحرص وعناية على حكايات الصيّادين وحكمتهم ولغتهم الغنية بالتفاصيل الدالّة. فالندى على الأشجار صباحاً، أو الغطاء الجليدي على الأرض، مسألة مبدئية. وتندرج قصة «الغُراب الأسحم» بيسْرٍ في صنف أعمال جيمس فينيمور كوبر وفيتالي بيانكي، وفي الوقت نفسه يظلّ لها سِماتها البارزة، وتظلُّ معاصِرة بلا جدال. إن ديما مجبول من لحم القرن الحادي والعشرين ودمِه، والطبيعةُ بالنسبة له ليست ورشةً أو مِحراباً: فهو نفسه، والغُراب الأسحم، وأشجارُ غابات التايغا التي لا تُعَدّ ولا تُحصى، كلُّ أولئك سكّانُ بيتٍ مشترك واحدٍ، لا وجود لغيره، ولهذا فإنه لا يُقدَّر بثمن.

المحتويات

1- إ. فيركين. عكس التيار ١١

2- الفصل الأول 15

3- الفصل الثاني 30

4- الفصل الثالث 43

5- الفصل الرابع 57

6- الفصل الخامس ٧٣

7- الفصل السادس ٨٧

8- الفصل السابع ١٠١

9- الفصل الثامن ١١٢
10- الفصل التاسع ١٢٧
11- الفصل العاشر ١٤٠
12- الفصل الحادي عشر ١٥٣
13- الفصل الثاني عشر ١٦٣
14- الفصل الثالث عشر ١٧٢
15- الفصل الرابع عشر ١٨١
16- تعقيبان ١٨٧

In angello cum libello[1]

«إننا نعامل الحيوانات بتعالٍ، مفترِضين أن مصيرها جدير بالرأفة، وأنها، بالمقارنة معنا، غيرُ كاملة إطلاقاً. إلا أننا مخطئون <...> فالحيوانات ليست إخوتَنا الصغار، ولا أقرباءنَا الفقراء، إنها شعوبٌ أخرى سقطت معنا في شبَكة الحياة، وهي مثلُنا أَسرى روعةِ الأرض وآلامها الدنيوية».

هنري بيستون

«بيتٌ صغير في آخر الدنيا»

«لقد بكيتُ <...> عزلةَ الإنسان الذي أصبح غريباً على كوكبه ومحكوماً بحمْل هذا العبءِ حتى ساعة موته».

فارلي موئيت

«حوت للذبح»

عكس التيّار

منذ أولى صفحات قصته يوضِّح يفغيني روداشيفسكي للقارئ أنه ليس سهلاً عليه أن ينصرف عن هذه القصة. فـ «الغُراب الأسحم» قصة لا تخادع ولا تعرض خياراً. من يفتحْها يجدْ نفسه فوراً في غابة شتوية، ولا عودة له منها إلى الوراء. حياة حقيقية. إن ديما، البطلَ الرئيس في هذه القصة، يتسرّع إذ يندم على عدم وجود ندْبات على جسده. إلا أنها ستأتي.

سوف تقع أشياء كثيرة. غابات التايغا المدوّية مثل كاتدرائية قوطيّة، والصامتة بطرائق مختلفة. والحرية التي طال انتظاره لها: ابتداء من المدرسة المضنية، والوالدَين الغارقَين بمساومات الكبار فيما بينهما، وملَلِ الحياة اليومية الخانقة في المدينة. الأحلام. والسلاح الذي كان ديما مفتوناً بقوّته وسلطته. الأحلام ثانية. كلُّ شيء هيِّن. الدَّمُ الأوّل. الحبّ الأوّل. وخيبة الأمل.

ديما في الرابعة عشرة من عمره، وديما يعشق الصيد.

يعشقه بنكرانٍ للذات، من أعماق روحه، مثلما لا يُحسن المرء العشقَ إلا في طفولته. عندما يكون التنفس صعباً، عندما تدور جميع الأفكار حول المعشوقة وحدها، عندما يسيل كُلُّ شيء في ضباب لا حاجة إليه، وعندما يكون كلُّ يومِ انتظارٍ عذاباً، بل وكلُّ لحظة مؤلمةً، والزمن خصمُك. ديما عاشقٌ وينتظر اللقاء. لا يأتيه النوم، يحاول معرفة المكان والزمان والكلمات الأولى والأحاسيس. فيما الزمن يمضي زاحفاً على مَهْلٍ.

ولكنْ ها هو اللقاء الأوّل. ها هي السعادة، وديما يعقد الأمل على التجاوب، ولا يفعل ذلك عبثاً.

ومع أن معشوقته تبادله هذا الحب، إلا أنها على نحوٍ ما... لا تبدو مثالية. لا تستجيب لمتطلبات ديما الرفيعة. إمّا أن المعشوقة لم تكن رائعة الحسن والجمال، أو أن ديما كان يبالغ في خياله عنها، أو أن سقف مطالبه كان عالياً، وقد تكون تلك الأسباب كلّها معاً. قُصارى القول، لم يصمد حبُّ ديما أمام اللقاء الأوّل. فيصاب العاشق بخيبة أمل قوية. تترنّح الأرض تحت قدَميه، وينهار العالم من حوله. ويبقى ديما المنتوفُ وحيداً على الثلج في الغابة الشتوية، وهنا يبدأ الشيء الأساسي.

تنتمي قصة «الغُراب الأسحم» إلى ذلك النوع النادر من أدب المراهقين الذي تشتعل فيه الروح بكلّ عنفوانها. إنه نوعٌ خطيرٌ لا يجرؤ كلُّ قارئ على المضيّ فيه حتى نهايته.

إن ديما الذي أُهينَ في أسمى مشاعره، يُعلن الحرب على مَثَله الأعلى الذي لم يتحقّق. ففي كلاسيكية هذا الجنس الأدبي لا تفصل بين الحبّ ونقيضه إلا خطوةٌ واحدة. لا يبقى لديما إلا التنهّدات. وهكذا يغدو موضوعُ حبّه المشبوب هدفاً لكراهيته. فيضع ديما دبابيس صغيرة على كرسيّ مَن كانت حبيبتَه، ويشدّها من ضفيرتها، يقسو بتحقيرها، ويختلق أكاذيب تطالها. إنه يحاول بكل ما أُوتي من قوة أن يجعل الجميع بلا استثناء يرون حبيبته السابقة كما يصوِّرها لهم! غبيّة، نمشاءَ، وتنكش أنفها خفية!

وقد أفلح ديما في مسعاه إلى حدٍّ لا بأس به.

إن الاصطدام بوقائعَ فجائيةٍ أمرٌ عاديّ بقدْر ما هو خطير. وهو حتميّ عملياً في الحياة، ويتجلّى على نحوٍ معقّد في الكتب. ففي الأدب لا يكون سهلاً على المؤلف إطلاقاً أن يتغلّب أحياناً على غواية الوقوف إلى جانب البطل وعينَي حقيقته الجميلتين. أمّا في الحياة فإن هذا الاصطدام تحديداً هو ما يكرِّر إنتاج هذا العدد الكبير من الناس التعساء: فاشلين، عباقرة مغمورين، أنواعاً مختلفة من كارهي البشر، مدافعين عن الحقوق، إلخ، إلخ. إن إدراك الحقيقة البسيطة، القائلة إن الكون ليس مثالياً، قادرٌ على أن يجعل من إنسان في طور النضج مستهترِاً لا يبالي بالقيَم، أو امتثالياً نفعياً، أو هستيرياً متطلّباً، أو بطلاً، أو متذمِّراً أبديّاً، أو وغْداً متزلِّفاً، أو كادحاً، أو إنساناً يطمح إلى بلوغ عالَمٍ أفضل.

يعرض يفغيني روداشيفسكي على بطله أن يختار. فالشتاء، والتايغا، والأيام العشرون التي يقضيها ديما بالصيد مع الصيّادين هو ما يغدو له حقلَ رماية، واختباراً قاسياً يمهّد اجتيازُه لاكتشاف الطريق إلى حياة حقيقية جديدة. إلا أن هذا الاختبار سيؤدّي، على نحوٍ لا يتوقّعه البطل ولا القارئ، إلى نتيجة لا تغيِّر ديما وحدَه، بل وتغيّر أيضاً غاياته في الحياة.

هناك الآن طريق جديد أمام ديما، ابنِ الرابعة عشرة. إنه يقوم بخطوته الأوّلى على قِشرة ثلجٍ يتقصّف جليدها تحت قدمَيه. إنها بداية كل شيء بالنسبة له.

الغُراب الأسحم. احتمالُ أنه حيٌّ أرجحُ من أنه ميت.

إدوارد فيركين

كاتب

الفصل الأوّل



كان الهدوء الشتوي يخيم على مرجٍ بين شجيرات التايغا. وكانت الغابة تغالب نعاسها تحت ثقل الجليد ورتابةِ بياض الثلج.

بدا البيت الشتوي الموجود هنا مهجوراً، تغمر جدارَه من جهة هبوب الريح كثبانٌ ثلجية، وتغطي قبّعةٌ ثلجيةٌ سطحَه المنخفضَ، المنحدرَ الجانبَين. لم يكن بالقرب منه دروب ولا آثار أقدام. وكانت حيوانات الغابة قد لاذت بمكانٍ قريب من بيت الصيّادين، وهي تعرف أنها لن تعثر هنا على ما تقتات به.

التايغا ستظل حتى الربيع هاجعة في أحلامٍ شفّافة مثل جليدِ بحر البايكال، لو لم يوقظها من غفوتها، ذاتَ صباح مشمس من شهر ديسمبر، هديرٌ زيتيٌّ ساخن أطلقتْه عن بُعدِ كيلومتر عن المرج شاحنة «أورال» مخصصة للطرق الوعرة، حين توقفت بالقرب من أطراف حرشٍ كثيف الشجر.

خرج من الشاحنة أربعة صيّادين في جلابيبَ بيضاء، كأنهم صخورٌ من ثلج. وقفز في أعقابهم كلب صيد. وعندما توقف هدير المحرّك، ترامت أصواتُ أشخاصٍ، ونباحُ كلب قويّ.

حرّك الصيّادون أرجلهم وهم يبتسمون بعد رحلتهم الطويلة، وكوّروا أعينهم وهم ينظرون إلى الشمس الناصعة والباردة معاً. كان عليهم أن يتنقّلوا عدة مرات بين الشاحنة والبيت الشتوي وهم ينقلون على الزلّاجات ما أعدّوه وأحضروه من حاجات للصيد.

- إذا ذهبتَ في هذا الطقس لقضاء حاجتك بين الشجيرات، إيّاك أن تنسى نفسك. وإلا صرتَ تمشي مثل ملكة من ثلج تجمدّ جسمها. لا بدّ لك من أن تكون هنا عمليّاً كما في قيادة الأركان العامة. إذا أنزلتَ سروالك فافعلْ مثل من يطلق من بندقيةٍ ذاتِ سبطانتين، قبل أن تتجمّد! - قال أرتيوميتش ضاحكاً وهو يرمي لِديما صرّة أخرى.

ابتسم الفتى رداً على ذلك، فقد كان أرتيوميتش موضع إعجابه. إنه رَبْعُ القامة، نحيفٌ مفتولُ العضلات. كان وجهه وردياً متجمّداً من البرد، تكشف ابتسامته عن أسنان قاتمة، وتدلُّ نظرته على أصله الريفي. لم يكن يستطيع بهذه السحنة أن يتظاهر بأنه ابن مدينة، حتى ولو فكّر بارتداء بدلة، ورباط عنق، وحذاءٍ لامع، كما فعل في حياته مرّتين فقط! المرة الأوّلى في عرسه، والثانية يوم جنازة والده. ومنذ ذلك الحين ظلّت البدلة في مُلحَقِ خزانةٍ يلامس السقف، إلى جانب أحذية من نوع «هاغِن» للتزلج على الجليد، ومجموعة لعبة اللوتو. وظهرت على جبين أرتيوميتش زاويةُ ندبةٍ كأنها خصلةُ شعر متهدِّلة.

- هذه هديّة من جاري، أوضح الصيّاد لديما عندما رأى الندبة أول مرة. - كم عمرك؟

- ماذا؟

- كم عمرك؟

- أربعة عشر عاماً.

- لقد كنتُ في عمرك أيضاً عندما ناولني جاري، بحكم الصداقة، ضربةً بالمنجل، وليس بالفأس، لحسن الحظ! قهقه أرتيوميتش وطبطب على كتف الفتى.

تنهّد ديما، وخجل من عدم وجود ندبات ولو صغيرة على جسده. أما الخدوش على الركبتين فلم تكن في الحسبان. كان ديما على يقين من أنه لا بدَّ أن يكون على جسم الصيّاد الحقيقي كثيرٌ من الندبات. ما كان ليستغرب لو علم أن على صدر عمّه نيكولاي نيكولايفتش، أو على ظهره، علاماتٍ خلّفتها مخالبُ ذئب أو دبّ.

«ليته كان لي أيضاً مثلها، - خطر لديما. - والأفضل لو كانت على وجهي، كي يراها الجميع. حتى إذا ما سألني أحدٌ أردُّ عليه بهدوء إن ذئباً محاصَراً، قائدَ سرب، انقضّ علَيّ وأهداني هاتين الندبتين، ولكنه تلقّى منّي سكّيناً في صميم قلبه».

- هه؟ ما لكَ نائم؟ دفع نيكولاي نيكولايفتش ابن أخيه الذي تجمّد وفي يديه صرّة. تابعْ عملك.

انتعش ديما وأسرع إلى الزلّاجات. وبينما كان نيكولاي نيكولايفتش، وأرتيوميتش، وفيتيا ينقلون الأغراض إلى البيت الشتوي، كان ديما وسائق شاحنة الطرق الوعرة يقومان بتفريغ الحمولة.

وصل نيكولاي نيكولايفتش وحدَه، بعد النقلة الأخيرة، كي يأخذ بقيةَ الأشياء وابنَ أخيه. وبصمتٍ ودّع السائق الذي كان عليه أن يأتي في نهاية الشهر للعودة بالصيّادين إلى بيوتهم.

انتصب ديما واقفاً على الزلاجتين الواسعتين، المعقوفتين من الأمام، ورمى حقيبة الظهر على كتفيه، واخترق الثلج بزحلقة ثقيلة، وانطلق في أعقاب عمّه.

انطلقت الشاحنة «أورال» عبر دربٍ حديثٍ، بضجيجٍ لم يدُم طويلاً. ثمّ خيَّم الهدوء من جديد على التايغا التي لم يكن فيها الآن شفافيةٌ ولا حريّةٌ. لقد أصبحت شائكة وكتيمة.

بصعوبة كان الفتى يُفلِح في اللحاق بنيكولاي نيكولايفتش وهو يمضي في سيره لا يلوي على شيء. وكان كلب الصيد تَمْغا على مقربة منه، يعدو متنقلاً بين شجرة وأخرى، يمعن النظر في أغصان الشجر وأوراقها، يشمّ رائحة الجذور المغطاة بالثلج، وهو يستعد لتعقب أثر السمّور الآن من دون أن ينتظر أمراً من صاحبه.

كان ديما توّاقاً لرؤية تَمْغا في الصيد. فقد كان ينتظر هذه الفرصة منذ الصيف، وكان مستعداً مثل كلب سلوقيّ لأن يُشرِع حالاً في عملية الصيد، ومن دون أن يعرّج على البيت الشتوي، عليه أن يتعقب الأثر ويطارد أوّل سمّور يجده، ليطلق عليه أوّل طلقة حقيقية له، فيشعر بالقوة التي ترجّ بها البندقية كتفَه. ويرى الدم الحقيقي. وابتسم ديما، فقد تحقّق حلمه القديم.

قبْل وصولهم نظّف فيتيا وأرتيوميتش الباحة الصغيرة من الثلج، وأزالا طبقة الجليد عن العتبة.

انفتح الباب بصرير خفيف، وظهرت غرفة مظلمة، نوافذها مغلقة، تفوح منها رائحة غبار وخِرقٍ بالية. دخل الصيّادون ونفضوا الثلج عن جزماتهم الـ «تورباس»[2]، وخلعوا جلابيبهم البيضاء، وفكّوا أزرار ستراتهم. ثم أسندوا الزلاجات إلى الجدار، وألقوا حقائب الظهر على الأرض، وانهمكوا بترتيب المكان. ولم يجرؤ الكلب على الدخول، فأقعى إلى جانب ما أنزلوه من أغراض.

استاء ديما حين علم أنه ما من أحد يذهب إلى الصيد في اليوم الأوّل. إلا أنه نفّذ بسرورٍ كلَّ ما طلبه منه عمّه، ثم رافق أرتيوميتش لقطْع أغصانٍ من أشجار الصنوبر والتنّوب لصنع سقيفة للحطب في الشتاء مثل كل عام، لأن الدببة كانت تحطم السقيفة في الصيف. لعلّهم ظنّوا أن هذه السقيفة العالية بين الأشجار هي اللاباز[3] الذي يمكنهم حفظ مؤن الصيد عليه.

في السنوات الماضية كانت الدببة تحطِّم درابزين الشبابيك وتكسِّر نوافذها، وتخلع الأبواب وتقتلعها، وتتجوّل في البيت الشتوي.

- لا يوجد هناك شيء يُفرح الدبّ، يقول أرتيوميتش. إلا ربّما بعضُ لحمٍ مهمَل، أو معلبات كونسروه. عندئذ لا يتطلّب الأمر منه إلا أن يعصر العلبة حتى تتهشّم، وينسكب منها سائلٌ على يديه يرضيه أن يلعقه، وكفى. هذا ما يفعله. والآن لم نعُد نترك شيئاً. أما السقيفة فإن الدببة تحطّمها حتماً، وكأنها تفعل ذلك نكاية بنا.

سار ديما خلف أرتيوميتش مبتسماً، وكان يضع الحطب في الزحّافة، وينظر إلى الغابة الموحشة من حوله. يتخيّل الآن أن أقرانه في الصف يحسدونه، وخاصة ساشْكا الذي يشاركه المقعد منذ الصف الثاني. فقد كان ساشْكا يحلم دائماً بإطلاق رصاص حقيقي، ويشارك في أولمبياد «counter strikes»[4]، وكان يعرف جيّداً تركيبَ بندقية م-4 القريبة إلى قلبه. ولكنّ كل هذا كان قليلاً في نظره، طبعاً. وفي أحد الأيام سرق من شقيقه الأكبر بندقيةَ ضغطٍ من طراز

«ماكاروف»، وتسلل مع ديما إلى أنقاض حمّامات كورباتوفسكي. وهناك راحا يطلقان الخردق على القوارير وعلب الكرتون، ثم على جُرْذٍ، وضحكا حين سمعا صأصأته. وخطر لهما أن يتبعاه، لأن ساشْكا كان يرغب في أن يصيب الجرذ في رأسه كي يهتف بالكلمة الغالية على قلبه «Headshot»[5]. إلا أنهما لم يتمكنا من العثور عليه، وخافا من النزول إلى القبو حيث كانت أفرشة المشرّدين القذرة وأسمالهم تملأ المكان. كان ذلك يوماً من أفضل أيام عطلة الربيع عندهما. وقد نال ساشْكا من شقيقه الأكبر عقاباً أليماً، لأنه أفقده اثنتين من أسطوانات الغاز.

أخبر ديما كل أصدقائه بأنه سيذهب إلى الصيد. إنهم ما زالوا على مقاعد الدرس، يكتبون الإملاء ومسائل الجبر، فيما هو يستعد لخوض الحياة الحقيقية. لم يكن أحد منهم، بمن فيهم ساشْكا، قد أمسك بيديه بندقية صيد من قبل.

قام نيكولاي نيكولايفتش في هذا الصيف بتدريب ديما على التسديد على العلب. وكان يمدحه على إصاباته الهدف، فقال له إنَّ مَن يحسن التسديد مثله لن يعود من الصيد خالي الوفاض. وحين شاهد قطّة الجيران على حائط السور، عرض عليه أن يتدرّب بالرمي عليها. فرح الفتى بهذه الفرصة، وصوّب البندقية نحوها، ووضع إصبعه على الزناد، لكنه لم يطلق النار. ولم يترك البندقية، بل كتم أنفاسه، بعد أن أسند كعبها إلى كتفه بقوة مثلما علّمه عمُّه. ولكنه، لسببٍ ما، تريّث قليلاً، فوثبت القطة إلى الجانب الآخر من السور. واتهم العمُّ ديما بالتواني، وقال له إن السمّور لن ينتظر طويلاً طلقةً تقتله. لاذ الفتى بالصمت. لو كان ساشْكا مكانه لَما ارتبك، فهو لا فرق عنده بين جُرذٍ وقطّةٍ، ما يهمّه هو «Headshot».

في الأيام التي تلت كان ديما يحاول التسديد على العُلَب وهو يأمل أن ينال ثناءً من نيكولاي نيكولايفتش، ولكنْ ساوره الخوف من أن يطالبه العمُّ مرّة أخرى بالرماية على القطط، أو بما هو أسوأ من ذلك، أي بإطلاق النار على الكلاب.

ظلّ ديما يتلهّف للصيد طول فصل الخريف، فأثار ضجر أصدقائه بما كان يحكيه لهم من قصص الصيد، حتى إن ساشْكا راح في المدة الأخيرة يبدي تأفّفاً من هذه الأحاديث، ولكن كان مفهوماً أنه يفعل ذلك بدافع الحسد. فليس بين أقربائه صيّاد واحد.

أمضى ديما شهر نوفمبر وهو يستيقظ كل يوم من النوم على فكرة اقتفاء أثر السمّور مع عمّه. ويتخيل كيف يطلق النار على ذلك الحيوان الناعم الوبر، ثم يحمل جثته الطرية بين يديه. كان واثقاً من أنه سيتوّج بالصيد دخولَه مرحلة النضج. فقد كان يرغب في أن يشعر بأنه ملك التايغا، مثل نيكولاي نيكولايفتش. فلا يخشى هذه الغابة الميتة ولا الحيوانات المفترسة التي تعيش فيها، كالذئاب والدببة والوشَق.

ها قد مرَّ أكثرُ من عام وديما يرتاد المكتبة الواقعة في شارع تريليسير، ويستعير منها كتباً عن الصيد. لم يكن ينكبّ على قراءة تلك الكتب بشغف، وإنما بين حين وآخر. فأكثر ما كان يفتنه هو أن يتخيّل نفسه، وعيناه مغمضتان، يتمرّغ في كثبان الثلج منهَكاً، مثخَناً بجراحٍ أصابه بها نمرٌ أو أي حيوان مفترس آخر. ثم يتمكّن من الضغط على الزناد بأصابعه المتخشّبة ويطلق رصاصته

الأخيرة، فيقتل الوحش الذي كان منقضّاً عليه بوثبة قاتلة، ومخالبَ مستعدةٍ لتوجيه الضربة القاضية. ثم يلتهم ديما قلبَه المرتعش، ويرتوي من دمه مثلما كان يفعل أبطال بوسينار[6]. وبعد أن يسلخ جلدَه، يشقّه وينتظر عاصفة ليل ثلجية مثل صيّاد وحوشٍ منهَك القوى... كان ديما يدرك جيداً أن صيد السمّور لن يكون بهذا القدْر من البهجة والدموية، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمتاع بصور الخيال التي ازدادت وضوحاً لعينيه بحلول الشتاء.

تذكّر ديما ما كتبه أحد الصيّادين في مذكراته عن صيده أوّلَ طائر في التايغا قائلاً: «آه، يا له من تطهير للروح، إنه سيكفيني لوقت طويل... لا شيء أفضل منه!»

«تطهير الروح». لم يفهم ديما معنى هذه العبارة، ولكنه كان يأمل في أن يدرك معناها حتماً، ما إن يقتل أوّل حيوان. وفي غمرة الانتظار كان يصفّ أشكال جنود على الرفّ، ويطلق عليها خردقاً بلاستيكياً من بندقية الضغط. ويرى في المنام حيوانات السمّور وهي تتحرّك خفيفةً بقوائمها الوبرية في غرفته، بمحاذاة الجدار.

- لن تغادري هذا المكان، همس الفتى واقتنصها بثقة واحداً تلو الآخر.

كانت والدة ديما تتضايق من النقرات الدائمة التي تصدرها طلقات ابنها على الدُّمى، ومن أحاديثِه عن الصيد. فلم تكن ترغب بالسماح له بالذهاب مع عمِّه، ولم يرُقْ لها أن يتعلم ابنها القتل. لم تكن تحب الصيد، ولكنّ ذلك لم يمنعها من قبول هدية من نيكولاي نيكولايفتش هي معطف من فروِ تلك الحيوانات الصغيرة التي يقتلها بيده.

وعموماً، لم يكن ديما يتفهّم والدته كثيراً. فقد كانت لودميلا فيكتوروفنا، بحكم عملها في مركز للأبحاث العلمية في معهد الميكروبولوجيا والإبيديولوجيا[7]، تُجري تجاربَ على الفئران لدراسة تأثير الأدوية الجديدة عليها. فكانت، بعد نقل جرثومة إلى الفئران، تحقنها بإبرٍ في ذيولها وعيونها لإعطائها الدواء المضاد للجرثومة نفسها، من أجل معرفة تأثيراته عليها. وبعد أن علِم ديما بذلك من والده ظلَّ مدّة طويلة لا يعرف الطمأنينة والهدوء. كان ينظر إلى بسمة أمِّه، ويتساءل في سرّه رغماً عنه، كيف تستطيع بهذه البسمة نفسِها أن تمسك بيدها فأراً وتغرس الإبرة الطبية في مقلته الصغيرة جداً...

«الفئران الخطية - مادة استهلاكية»

«فئران المناعة - مادة استهلاكية»

«فئران الأنابيب، تحقن في بطونها بمادة هجينة تصيبها بورم خبيث، ثم تؤخذ منها خزعة. إنه مصدر غني للمادة البيولوجية».

- هل تعلم أن جميع القوارض الذهبيةِ اللون التي أجريت عليها التجارب سابقاً تنحدر من فصيلة واحدة، قالت لديما. - أجل... هكذا كان. إن مئات الأجيال من فصيلة واحدة كانت تحت التجارب.

بالطبع، هذا مرعب، لكن الفئران الآن استُبدلت بها. ونادراً ما تصادف اليوم حيواناً قارضاً. وهذا جيد. إنها رائعة تثير الشفقة.

«مادة استهلاكية».

عندما حان وقت التخلص من الفأر الموضوعِ تحت التجربة، ضغطت الأم على رأسه بيدٍ، وسحبت بالأخرى ذيله بقوة. وكانت القرقعة الخافتة تعني أن العمود الفقري قد تحطم، وأن الحيوان قد مات.

«الانزياح في الرقبة» إزاحة الفقرات العنقية. أكثر الطرق رخصاً وانتشاراً.

كانت الأم تحب الفئران بطريقتها الخاصة، وتعتني بها. تحدثنا كم هي مضحكة ولطيفة، وكيف تستقبلها بصأصأةٍ متحدية. وعندما تكون في إجازة عمل، تذهب إلى عملها مساءً، فتدلِّلها وتقدِّم لها أغذية أطفال على حسابها.

«هريسة من لسان البقر مع الأرْز».

«لحم دجاج مفروم مع نَشا البطاطا».

«خليطٌ مغذٍّ من الديك الرومي مع زيادة اليود فيه»...

- يصعب جداً تلقيحها بمرض يصيب الإنسان، فهذا يحتاج إلى وقت طويل. ثم إنها تصبح فيما بعد كالأقارب، إنك تعتاد عليها. قالت لودميلا فيكتوروفنا بأسف، وهي تضع شرائح لحم الدجاج في الصحون.

كانت تقدِّم أحياناً «نوبات نباتية»، حسب تعبير الأب. وبعد أن قرأتْ لودميلا فيكتوروفنا عن كيفية تعذيب الحيوانات في المزرعة، أو بعد مشاهدتها ذلك في أفلام وثائقية، أعلنت والدموعُ تترقرق في عينيها، إنها لم تعُد تطيقُ وجود اللحم في ثلاجتها، كما تخلَّت عن شراء الأفخاذ وشرائح اللحم، ولم تعُد ترغب بمشاهدة النقانق والسجُق. وأخفت في المستودع معطف الفرو الذي أهداه لها نيكولاي نيكولايفتش، وأبعدت عن البلكون قرون الأيّل التي علّقها الوالد في الممر أيام شبابه، واستخدمها منذ ذلك الحين مشجباً للملابس. كما أرسلت إلى المستودع بندقيةَ الأب التي كان كعبها من خشب الجوز، وبندقية أُخرى جديدة، للصيد تحت الماء، لم يستخدمها خلال هذه السنوات سوى مرة واحدة في منتجع في تايلاند. وانكبّت الأم على قراءة قصص عن آلام القطط المريضة المشرّدة، والدموع تنهمر من عينيها، فنسختْ تلك القصص على صفحتها، ولكنها رفضت تقديمَ تبرُّعٍ لمعالجتها، قائلةً إنها لا تعرف لمن تصل هذه الأموال، في حقيقة الأمر.

بعد مرور أسبوعين خفّت النوبة النباتية. وبعد أن نال التعب منها، نتيجة إعدادها طعاماً من الكوسا والحنطة السوداء والمعكرونة مع البندورة، أغوَتْها رائحة الكبّة المسلوقة أو المقالي، وغضبت من الجيران بسبب انتشار رائحة طبخهم عند مدخل البناء كله. ولمّا علم الأب وديما أن طعام العشاء

شرحاتٌ من لحمِ العجل، أو يخنَةَ «بورْش» بالملفوف وفيها قطعٌ كبيرةٌ من اللحم، عرَفا أنه ينبغي عليهما الآن أخذُ قسط من الراحة. وضحكا عندما شاهدا لودميلا فيكتوروفنا تمصُّ النخاع من العظام بشراهة. كما أعادا معطف الفرو وقرونَ الآيّل والبندقية إلى مكانها، وضاعت جميع قصص القطط مع سجلّاتها، وفرحت الأم لأنها لن تسمح بأن تُخدَع، وصدّت النصّابين الذين لم يكن لهم في الواقع أيّ علاقة بهذه القطط.

عندما اقترب ديما من البيت الشتوي تذكّر معطف والدته وهو يأمل في أن يهديها معطفاً مشابهاً، حينها ستعترف بشغفه بالصيد. بل وكان يرغب بأن يقدِّم ذات يوم قبعة من فرو السمّور هدية لزميلته في المدرسة كريستينا، فقد كانت تحب كل ما هو ناعم ومن الفرو، ولا بدّ أنها ستقدِّر الهدية حقَّ قدْرِها.

لقد سبق لديما أن اشترى لها من بحيرة البايكال دُميةَ سنجابٍ من فصيلة الفقميّات هديّة في عيد ميلادها الماضي.

لم يكن الفتى يشكُّ في أنه سيطلب من عمِّه السماح له بمشاركته في الصيد القادم أيضاً.

أما نيكولاي نيكولايفتش فكان يمارس الصيد منذ أن بلغ العاشرة من عمره. لقد تعلم كل شيء من والده الذي أمضى سنوات طويلة في صيد السمك والفقمات وتعقُّبِ أثر الخنازير البرية والأيائل والغزال المنشوريّ[8]. كما كان يصطاد ببندقيته قَطا الغابات والحجَل، وينصب الفِخاخ لكلِّ أنواع الكائنات الوبرية الصغيرة. وفيما مضى كان كذلك يسمِّم الذئاب، إلا أن صيد السمّور ظلّ هوايته الرئيسة دائماً.

كان رجلاً قوياً، طويلَ القامة، كفّاه كبيرتان كأنهما منتفختان، وأصابعه غليظة يكسوها شعر أشقر، لا يؤلمها القبض على الجمر. وكان وجه نيكولاي نيكولايفتش ملفوحاً، يغطيه نمشٌ بنّيّ اللون، وتظهر على خدَّيه بقعٌ من زغَبٍ فاتحِ اللون لم يحلقْه.

لم يكن شديدَ الشبَه بشقيقه والدِ ديما الذي كان وجهه فاتح اللون، مبتسماً، ولم يخرج إلى الصيد منذ زمن طويل، ولكنه موافقٌ على أن الرجل يجب أن يشمّ رائحة البارود على أصابعه ولو مرة واحدة، وأن يُريق دمَ حيوانٍ برّيٍ. كان ديما يعتزم القيام بكل هذا في اليوم التالي، أما الآن فكان يساعد على إيقاظ حيوانات الغابة من سُباتها الشتوي الطويل.

فكّ الصيّادون الصرر والرزمات، وأخرجوا البنادق وصناديق الخرطوش، وعلّقوا الملابس، ووضعوا المعلّبات على طاولات منخفضة، وفرشوا أكياس النوم على الأسرّة. وعاين فيتيا وأرتيوميتش الفِخاخ الباقية هنا من العام المنصرم، وفحصوا الأسلاك والفؤوس.

أشعل نيكولاي نيكولايفتش حطباً قديماً في الموقد، وقرر إعداد طعام الغداء، وأرسل ابن أخيه من البيت ليجرف له قصعة من الثلج.

كان الجوُّ بارداً في الخارج، ولم تكن هناك ريحٌ. نظر ديما إلى الأشجار المحيطة بالمرج حوله، وإلى السماء التي تحجبها غيوم جليدية ناصعة البياض.

كان الثلج ينبعج ويصدر هسيساً قويّاً تحت أحذية الماشين، وما تبقّى كان هادئاً. لم يسمع ديما من قبلُ أبداً مثل هذا الهدوء الواضح، المحسوس. كانت تحدوه رغبة بالاختفاء، وبأن يصبح هو نفسه هادئاً مثل الغابة الدائمة الخضرة، وفي الوقت ذاته بأن يكسر هذا السكون الزجاجي، بإصدار صوتٍ ما... كان هذا التناقض لطيفاً.

كانت سكينة التايغا في الشتاء أكبرَ ممّا هي في أكثر زوايا المدينة هدوءاً، ولكنّ المرء كان يُحس في كل مكان هنا بتوتر من نوعٍ خاصٍّ، طازجٍ، مرِنٍ مثل قوائم سبعٍ برّيّ متأهّبٍ لوثبة مميتة.

تنفّس ديما بعمق حتى النهاية، وأطلق زفيراً على مهل، وتلفّت راغباً بأن يلمح ذئباً أو ثعلباً. ثم تقدّم خطوات إلى الأمام فشاهد على شجرة صنوبر بالقرب من البيت الشتوي غُراباً ينظر إليه مليّاً. كان غُراباً أسحمَ شديد السواد، يقف بلا حراك وقد أحنى رأسه قليلاً وخفض جناحيه جانباً، كأنه ليس حيّاً نهائياً. كانت عنقه تتوهّج تحت أشعة الشمس بلون بنفسجي، وانتفش تحت منقاره وعلى عنقه ريش صغير يشبه لحية شعثاء، وكانت مخالبه الشائكة قابضة على الغصن بأمان، وعيناه الخرَزيتان الكبيرتان تحدقان بثبات.

- لماذا تحدِّق؟ تضاحك ديما ساخراً.

- مع من تتكلّم؟ تعجب أرتيوميتش وهو يخرج من البيت.

- انظر. أومأ ديما إلى الغُراب الأسحم.

- لم يكن ينقصنا هنا غيرُك، تمتم الصيّاد ولوّح بيديه: - انصرفْ!

لم يخشَ الطائر، وظلّ رابضاً في مكانه.

- حسَناً. ابقَ جالساً، ابقَ. الآن سأطلق عليك النار، ونرى جرأتك.

-على من تنوي إطلاق النار؟ سأله فيتيا الواقف عند الباب.

- على هذا الجالس.

- على الغُراب الأسحم؟ ولماذا؟ دعْه وشأنه.

لم يُجِبْ أرتيوميتش بشيء، بل دفع فيتيا جانباً وانطلق صامتاً ليأتي بالبندقية. وما إن عاد ودفع الخرطوش في المخزن حتى بسط الغُراب الأسحم جناحيه كأنهما شريحتان رقيقتان من طينٍ أسوَد،

وارتفع عن الغصن، وأطلق نعيقاً حادّاً «قْرااا»، وطار خلف البيت، قبل أن يتسنّى للصيّاد تصويبُ بندقيته!

- فليأخذْك الشيطان...

خرج نيكولاي نيكولايفتش إلى العتبة وعلى محيّاه ابتسامة ساخرة. ثم غاب الغُراب الأسحم عن ذاكرتهم إلى حين.

واستعداداً للغد، سمح الصيادون لأنفسهم بنيل قسطٍ من الراحة.

في المساء جلسوا على ضوء فانوسين في عتمة الغسق.

لم يكن البيت الشتوي كبيراً، كان طوله خمسة أمتار، وعرضه أربعة أمتار. فيه ثلاثة أسرّة وآخرُ مطويّ، وموقد، وطربيزتان، وطاولة ليست كبيرة. وقد ملأت هذه الأشياءُ فضاء البيت كله تقريباً. فقد كان على الصيّادين أن يعيشوا هنا عشرين ليلة. كان المكان ضيقاً عليهم بعض الشيء، لكن ديما كان أكثر إعجاباً بهذا المكان من شقته الفسيحة.

«أيُّ تطهير للروح...».

«لا يوجد مكان أفضل من هذا...».

وفيما هو يستسلم للنوم تذكر الغُراب الأسحم. الطائرَ الجميل.

عبثاً أخافوه. ليتهم تركوه على الشجرة... امتلأت الغرفة بأنفاسٍ لزِجة، كان الفتى بعيداً، بالكاد يسمع ما يدور بين عمّه وفيتيا من حديث، وهما يضحكان ويتذكّران صيد العام الماضي، يحدوهما الأمل بألا يكون العام الحالي أقل نجاحاً من سابقه.

خطر لديما قبل النوم أنه لا يعرف كيف يخاطب أرتيوميتش. فهو لم يقرر أن يناديه باسمه الذي بدا له ذا خصوصية شخصية، أو أن يناديه بالعم أرتيوم، لأن ذلك سيكون حماقة، وقد يضحك منه الصيّادُ نفسه.

«لا بأس، سأقتل أول سمّور، حينذاك ستصبح أنت لي مثل أرتيوميتش، وربما يعطونني أيضاً لقباً ما، على طريقتهم. ديمان، ديميتشِن، ديوما». وابتسم الفتى لأفكاره، واستدار بوجهه إلى الجدار، وما لبث أن غفا.

الفصل الثاني



- هنا تصادف أنواعاً منه، قال فيتيا بصوتٍ ممدودٍ.

كان ديما يكمل شرب الشاي من دون رغبة وهو يسند خدَّه إلى راحة كفّه. فهو ليس معتاداً على الاستيقاظ في الظلام، قبل أن يشع النور في السماء، أو يلوح بصيص الفجر. كان جسده الكسول ثقيلاً. وعليه أن يطبِق أسنانه بشدةٍ حدَّ الألم كي يُخفي تثاؤبه عن الأنظار، كأن عاصفة ثلجية تدوِّي في أذنَيه.

- لقد شاهدت هنا حيوان الوشَق والزِّنّة السيبيرية. قال فيتيا وهو يمسِّد شعره الأشعث براحة كفّه بعد النوم. وكان الوشَق يقترب منّي كثيراً.

- كفاك تبجّحاً، همهم أرتيوميتش وهو يطلي الزلّاجات الخشبية بالقار ليجعلها ملساء. أنت رأيتَ الوشَق، آ- ها... لا بل قلْ لي إنك رأيتَ النمر أيضاً، جاءك راكضاً من نهر آمور.

- ما لك؟ الوشَق بعينه، واصل فيتيا حديثه لديما، بل ولم ينظر صوب أرتيوميتش، فقد اعتاد على تذمّره الساخر. هل تعرفه؟

هزّ ديما رأسه.

إنه حيوان ناعم، تشوبه مسحة زرقاء. إنه جميل. ابتسم الصيّاد، وأردف حالاً: - أما عندما يزعق، تقول ليته ظلَّ صامتاً. صوته الرفيع قبيح. فهو، كما تعلم، لا يزعق، بل غالباً ما يتأتئ بصوتٍ هستيري ومرتفع. ثم يشبع تأتأة، ويبدأ بالنخير كأنه يختنق وهو يقضم شيئاً وينخر. إن كنت لا تعرفه لن يخطر على بالك أبداً أنه الوشَق.

كان أرتيوميتش يحبس ضحكته بصعوبة طول الوقت، ثم لم يتحمّل وانفجر ضاحكاً.

- ما أشطره! هل تسمع، يا نيكولايفتش، فالوشَق عنده تارة كان ينخر، وأخرى يتأتئ!

لم يُلقِ نيكولاي نيكولايفتش ولو نظرة إلى أرتيوميتش، كأنه لا يسمعه.

- لكنّي قلتُ هذا مجازاً... تبرّأ فيتيا بهدوء، ثم أردف بصوت مرتفع! - ما ذنْبي إذا كان صوته هكذا؟

- لا تستمع إليه. غمز أرتيوميتش بعينه لديما، - إنه سيغرقك بالكذب إذا أنصتَّ إليه.

- أقول لك رأيته! عبس فيتيا. وقرر أن يقلِّد صوت الوشق الذي صادفه.

وضع يديه في خصريه، وأخذ يتأتئ بزعيقٍ متقطِّع بالفعل، لكن صوته كان شبيهاً بنهيق الحمير. وما إن بدأ أرتيوميتش يقول شيئاً حتى تلعثم، وعوَج شفتيه، وغلبه الضحك، فراحت القضبان تسقط من يديه. وشرع فيتيا، وقد أخفقت محاولته، يزيد ارتفاع زعيقه المتقطع كالنهيق.

أخفى الفتى ابتسامته خجَلاً ممّا لحق بفيتيا. فقد كان يصدِّقه ويرغب بمعرفة المزيد منه عن الوشَق والحيوانات الأخرى التي تعيش في التايغا. إذ إن نيكولاي نيكولايفتش الذي رأى كثيراً من الحيوانات لم يكن يتحدّث عنها إلا نادراً. وعموماً، لم تتوفر لديما فيما مضى فرصة للحديث بشكل طبيعي مع عمّه الذي كان، عندما يزورهم، يختلي مع الوالد في المطبخ، فلا يصل إلى سمْع الفتى من هناك إلا أصوات باهتة من حديث يصعب التقاطه. وكان نيكولاي نيكولايفتش يتحدث إلى ابن أخيه باختصار، وحول أشياء محدّدة، حتى في هذا الصيف، عندما أمضيا معاً أسبوعاً كاملاً.

إن فيتيا الذي عاش في أنغارْسْك، واشتغل حارساً في مستودع للخضار، كان منتفخاً، وبديناً تقريباً. عندما يبتسم، يغدو وجهه دائرياً تماماً. وكان أرتيوميتش يقول مازحاً، إن لفيتيا «وجهاً لا يحيط به حبْل». إلا أن السمنة لم تمنعه من الصيد، والتزلج على الثلج.

دُهِش ديما حين علم بالأمس فقط أن فيتيا كان معلماً للموسيقى، وما يزال حتى الآن يعطي دروساً خاصة على البيانو. ولم يقدِّم أحد للفتى تفسيراً وافياً لسبب انسحاب الصيّاد من مدرسة الموسيقى. أمّا هو فكان يعزو ذلك إلى تعبه من الحركة الزائدة، ومن الأطفال، وإلى أن العمل حارساً أكثرُ هدوءاً له في هذا العمر.

دحض أرتيوميتش، ذو الضحكة الرنانة الأقربِ إلى النباح، مبررات فيتيا كافة الذي لاذ بالصمت أخيراً، ثم ما لبث أن انخرط بالضحك أيضاً. وأخذ الكلب تَمْغا ينبح منزعجاً، لا يدرك ما يجري حوله، ولا ما أثار هذا الضجيج. وأخيراً، لم يتمالك ديما نفسه أيضاً. وظلّ نيكولاي نيكولايفتش وحدَه هادئاً، ينظر لامبالياً أحياناً إلى أصدقائه وهم يقهقهون.

وسرعان ما انقلب فرحُ ديما إلى حزن. فقد قال له عمُّه إن صيد السمّور لا يلوح في الأفق هذا اليوم أيضاً، وسيذهب الصيّادون إلى الغابة لبعض الوقت كي يقتفوا آثار السمّور، ثم يُمضون النهار كلّه بتهيئة الحطب وإعداد الفِخاخ.

فقد الفتى السيطرة على نفسه، حين علم أنهم لن يصطحبوه معهم إلى التايغا للاستطلاع. وعاقبه عمّه، فكلّفه بتنظيف البيت الشتوي من كل أنواع القمامة، وباستخدام الرفش لتنظيف النافذة التي غطّاها الثلج.

خرج ديما إلى المصطبة حاملاً مكنسة بيده. ورافق الصيّادين حتى البوابة عند خروجهم، وحسد كلب الصيد الذي لا يتركونه في البيت أبداً.

كان نيكولاي نيكولايفتش يدلّهم على الطريق، لكنه لم يكن في المقدمة دائماً، إذ لم يكن يسيراً شقُّ ممر في الثلج الصلب، فكان الرجال يتناوبون على ذلكَ، فيما يجري الكلب تَمْغا إلى جانب صاحبه، يتشمّم الرائحة، مخلِّفاً وراءه خطّاً متعرّجاً من الآثار.

بحلول شهر يناير ازداد تساقط الثلج في هذه المناطق، فبات الصيد عن طريق الكلاب أكثر صعوبة، لأنها تغور في الكثبان الثلجية، ولا تتمكن من تعقب آثار الحيوانات. ولم يعُدْ في اليد حيلة تُغني عن نصب الفِخاخ، ومصائدِ الحيوانات الصغيرة، أو الذهاب شمالاً باتجاه السفوح المنبسطة، حيث لا توجد مطبّات ثلجية خطيرة.

أحسّ ديما بالرعب وهو وحيد في بيتٍ معتمٍ، تحيط به التايغا الموحشة، وتهيم على وجوهها حوله الذئابُ الجائعة، وحيوان الوشَق. كان الخوف خاطفاً، وما لبث أن تراجع، حين راح ديما ينظف أرضية البيت. ولكن الفتى لم يشأ أن يطلقه، وقرر أن يتسلّى به ليبعد عن نفسه الوقت الممل. أخذ يتخيَّل أن العاصفة الثلجية تودي بالصيّادين إلى الهلاك، وأن دبّاً مهتاجاً يلتقي بهم. وأن جثثهم التي مزَّقها الدبّ لا حياة فيها، قد غمرها الثلج، ويبقى ديما وحيداً، وهو مراهق عديم الخبرة، في الرابعة عشرة من عمره، وسط هذه الغابة الخطيرة.

شغل نفسه بهذه الأفكار، وشعر بأن الخوف يبرِّد الصدر، ففرح بذلك. سيكون لديه ما يحكيه لساشْكا وكريستينا. إنهما يتصفحان كتبهما المدرسية، وينكبّان على واجباتهما المدرسية في المنزل، فيما هو ما يزال على قيد الحياة في الغابة. لا يرجع من الاستطلاع سوى الكلب تَمْغا. لقد كان جريحاً، ولكنه حيّ. فعالجه ديما، ثم أخذه معه إلى صيد السمّور، فهو لن يبقى جالساً من دون عمل! هناك التقى الوشَق التأتاء الشرير، والدبّ الذي قتل الصيّادين. لقد ذاق هذا الدبُّ طَعم لحم الإنسان، وبات يطلب المزيد. هرب ديما منه، ثم استدرجه إلى الفخ. فخوزَقه على أخشاب حادّة، وقتله بطلقة من

بندقيته. كلا، بل بضربة فأس! وفجّ رأسه بـ «Headshot»! ثم صنع من مخالبه وأنيابه عِقداً للذكرى. وسلخ جلد الدب، وجففه، وراح يرتديه بدلاً من جلبابٍ مموّه. والآن لن يتجرأ أي وحش على الاقتراب منه. لقد أصبح مَلك التايغا ورجلاً حقيقياً. إن أمّه لن تعرفه. أجل، ويتمكن الدب قبل موته من أن يُنشِب مخالبه بوجهه، ويخلِّف له ثلاث ندبات على حاجبه وخدِّه. عندما يراه أصدقاؤه ستشحب وجوههم من هول ما يشاهدون: ساشْكا سيتّقد حسَداً، وكريستينا إعجاباً، وأرتيوم خوفاً ورعباً.

لم يكن ديما يتعب من استعادة هذه المَشاهد، ويعتصر منها قطرات الخوف الأخيرة فيستمتع بها، ويتلذّذ. وأضاف إليها قبل النهاية معركة مع الذئب والوشَق، لا بل مع سِربِ ذئاب طوّقته في دغل من الشجر، وكشرت عن أنيابها البيضاء الناصعة.

نجا الفتى بجهدٍ خارق، وراوده أمل في أن يحظى بمديح من عمّه. حتى إنه نظّف الرفوف من الغبار، وأزال ما كان عليها من أكداس الخنافس المتجمّدة، وأعشاش العنكبوت. ولكنه تمعّن أيضاً بمزيد من الاهتمام بتفاصيل حياة الصيّادين.

على رف النافذة وفي زواياه، وجد أكواماً من علب الكونسروة القديمة الكثيرة الشقوق، وحلقاتٍ مدعوكةً، وأشرطةَ مسجِّلة من نوع «الربيع»، شبهِ محطمة تتدلّى منها شرائط مثل أمعاء سوداء. وكان هناك أيضاً عُلَبُ حليب، عليها فطور جافة، وأزهار سوسن حجرية، وماكينات حلاقة صدئة، وفرشاة حلاقة قديمة، وبقايا شموع صفراء، وقِطع حديد من قياسات مختلفة، وعلب مسامير، بل وقنينة كولونيا من ماركة «الفجر الجديد» يغطّيها الغبار. كانت هذه الأشياء تضيف حياة طويلة للبيت الشتوي الذي كان يجتمع فيه الصيّادون خلال مختلف فصول السنة، ولم يكن لأجل حرفة الصيد وحدها.

ما بعث السرورَ في قلب الفتى هو رؤية لوحتَي إعلان باهتتين، على إحداهما صورة سيّارة «لادا-1300»، وعلى الثانية صورة فتاة شبهِ عارية على شاطئ البحر، تحيط بها أشجار النخيل. وتأسَّف لأنه لم يجلب معه إلى هنا واحدة من البطاقات البريدية التي عليها صورة لاعب كرة القدم زين الدين زيدان؛ فقد كان من الممكن أن يخلِّف هنا ذكرى تخصه هو.

عاد الصيّادون وقت الظهيرة. وعض ديما على شفتيه، بعد أن علم أن الطلقة الأوّلى قد أُطلِقت من دونه. فقد أصاب نيكولاي نيكولايفتش غزالاً منشورياً بطلقة نارية، عندما أخطأ الغزال وركض صوبه. كان هذا نجاحاً كبيراً. فالغزلان تخاف عادة، فيغدو تعقب أثرها أصعب من تعقب الأيّل. سلخ الصيّادون جلد الغزال في المكان، ولم يحملوا معهم إلى البيت الشتوي إلا أحشاءَه وقِطعاً من لحمه. وسمحوا لتَمْغا بنهش الجثة الطازجة، فكان بوز الكلب والزحّافة ملطَّخَين بالدم.

وازداد انزعاجُ ديما عندما وبّخه عمُّه على إلقاء كل ما جمعه من قمامة في الموقد.

- أيها الفتى البليد! ينبغي أن تشغِّل عقلك.

تبيّن أن القمامة التي جمعها من البيت كان يجب أن تُرمى في الخارج. إذ قد يكون باقياً فيها خرطوش من العيار الصغير، يمكن أن ينفجر في الموقد ويصدّع جدرانه.

لم يكن لديه وقت ليستاء من عمه، فما زال أمامه الكثير من المشاغل في هذا اليوم.

انشغل فيتيا وأرتيوميتش بتجهيز الفِخاخ، فراحا ينظفان قديمَها من الصدأ، وجديدَها من شحم المصنع. ثم يغليانها في منقوعِ الصنوبر لطرد الروائح الزائدة.

قال أرتيوميتش إن السمّور حيوان يشعر فوراً بيدِ الإنسان.

كان ديما يراقب عمله عن كثب، ويحاول ألا يترك شيئاً يغيب عنه. وعندما قام بفحص الفِخاخ كان كل منها أكبرَ من الكف بقليل. فساعد في ربطها على شكل عناقيد ووضعِها في الماء المغلي. وانتشرت في البيت الشتوي رائحة غابة دافئة وندّية.

نسيَ ديما كل ما لحق به من إساءات، لأنه كان شغوفاً بهذا السر، وها هو أخيراً يبدأ بتعلُّم حرفة الصيد. ففي المدرسة لا يحدثونه عن مثل هذه الأشياء. «هذا ليس شبيهاً بحساب الكسور». ابتسم الفتى وهو يراقب كيف يمسح فيتيا بالمبرد نتوءاً عن القوس، ويجرِّب بإصبعه دِقة لسان الانطلاق.

- المهم كيف؟ شرح لديما. إذا لم تثبِّته بقوةٍ، يخلعه السمّور وينجو. وهذا ما يحدث. فإذا ما كُسرت قدمه، فالسمّور ليس أحمق، سيقضمها، ويتركها في الفخ ويهرب. يحدث أحياناً أن يصطادوا سمّوراً بثلاث أرجل، فهذه الحيوانات تستطيع العيش بثلاث أرجل.

ابتسم ديما وهو يتصور حيواناً أعرج استطاع الهرب من الفخ. ومال بنظره نحو أرتيوميتش متوقعاً أنه سيسخر من فيتيا، إلا أن أرتيوميتش لاذ بالصمت.

- ما هؤلاء إلا هواة. تابع فيتيا. يشترون كثيراً من الفِخاخ، ولكنهم لا يعرفون طريقة نصبها.

هزَّ الفتى رأسه بصمت، فلن يصفه أحد بالهاوي بعد هذا الصيد.

كان نيكولاي نيكولايفتش في هذا الوقت يقطِّع لحم الغزال المنشوري. فأعطى أرتيوميتش عدداً من هذه القطع كطُعم لصيد السمّور. وأعاد أرتيوميتش تقطيعها إلى شرائح رقيقة وصغيرة، ثم لفّها في ورق السلوفان، وعلّقها في زاوية دافئة كي ينضج الطُّعم هناك.

- البرد يطرد جميع الروائح. كلما كانت الرائحة أقوى كان الطُّعم أفضل.

- وكيف نعرف أن الطُّعم جاهز؟

- هكذا تعرف! ضحك الصيّاد وهو يحك الندبة على رأسه، حين تصدر منه رائحة عفنة، يكون قد نضج، ثم يملّح ويعبّأ مع الأحشاء في صفائح. هناك يختمر ويغدو شهيّاً. لن تجد طعماً أفضل منه.

لا يضاهيه طعم مصنوع من الجوز والثمار البرية.

فكّر أرتيوميتش قليلاً، وضحك ثانية. قال لديما إن هناك صيّادين يستخدمون براز السمّور وبوله. فرائحتهما قوية جداً، تجتذب هذه الحيوانات دائماً.

- هكذا يبحثون في الغابة، فيجمعون الروث المتجمد، ثم يذوّبونه ويشكّلون منه كعكاً. ماذا تريد بعد!

- حسناً وماذا؟ ردَّ فيتيا. ليس السمّور وحدَه من يُصطاد بالبول، فالأيِّل ينجذب شتاءً نحو كل ما هو مالح. وهكذا، فإن هذا الحيوان ينجذب نحو البول عن بُعد مئات الأمتار، إن حاسة الشم قوية عنده. أما الذئاب فتبول على الثلج، وتكمن مختبئة في مكان قريب.

- لا غرابة! تضاحك أرتيوميتش. ثم غمز لديما، وهمس له سرّاً: - فخُّ البول، لابد من اختباره.

قرر الصيّادون أخذ ما تبقّى من لحم الغزال المنشوري إلى البيت، وقاموا بإعداده للحفظ بعد تجفيفه تحت أشعة الشمس ثم تجميده. فمدّوا حبلاً بين الشجرة التي كان الغُراب الأسحم واقفاً عليها والبيت الشتوي، وعلّقوا عليه قِطع اللحم. فلم تعُد عملية الحفظ بحاجة إلى أي جهد.

- دعْه معلَّقاً، لن يمسَّه أحد، لوّح نيكولاي نيكولايفتش بيديه.ولنذهبْ لجمع الحطب.

كان الصيّادون ينوون منذ النهار جرّ زوج من الجذوع الجيدة على الزحّافة، لكنهم انشغلوا بالغزال.

بقيَ فيتيا في البيت الشتوي ليطلي الفِخاخ بطبقة من الشمع تحميها من أن يغطيها الجليد في البرد. وذهب باقي الرجال إلى الغابة.

كان الدخان يتصاعد من المدخنة كثيفاً. نظر نيكولاي نيكولايفتش إليه، وقال إن الجو غداً سيكون دافئاً. هذا وقت مناسب لصيد السمّور. سُرّ ديما بذلك، وبينما كان ماشياً صوب الحرش، التفت عدة مرات إلى الدخان المتصاعد من الموقد، كمن يرغب بتقديم الشكر له على الفأل الجيد. ولمّا التفت آخر مرّة رأى الغُراب الأسحم يحلِّق فوق البيت.

«هل هو الغُراب الأسحم نفسه، يا تُرى؟» تعجّب الفتى من ثباته. - لا مصلحة له في هذا اللعب، سنطلق عليه النار، ما الذي أضاعه هنا؟»

كان الغُراب الأسحم يحوم بسلاسة لا يَصدُر عنه صوت، ولم يعتزم ديما الحديث عن خططه. «دعْه وشأنه».

كان العم وأرتيوميتش يبحثان في التايغا عن جذوع تالفة، وكان ديما يبحث باهتمام عن ديدان. ولكنها قليلاً ما توجد هنا. ولعلّ الكلب تَمْغا أثار ذعر الجميع، وهو يجري من صيّاد إلى آخر، وينبح على كل حركة في الأغصان.

وسرعان ما رأى الفتى على شجرة التنّوب عصفورَ قرزبيل حقيقياً يجيل نظره بقلق، ويرفع منقاره المعقوف المتصالب في نهاياته، فيجعله يتشبَّث بالأغصان، ويمدُّ ساقيه مثل ببغاء يساعد بهما نفسه. كان يبحث عن أكواز الصنوبر. إنه أكبر من عصفور الدوري قليلاً، ويمكن ألا يلاحظه أحد في أجَمة كثيفة لولا ريشه البرتقالي الفاتح على بطنه، والأكثرُ قتامة بقليل على الرأس. عندما يشاهد القرزبيلُ الناسَ، يطلق صرخة استياء «تر- تر، تشي، تشي- تشي، تشي» ويطير بخفة إلى شجرة تنّوب مجاورة، ثم يبتعد أكثر فأكثر إلى أن يختفي عن الأنظار نهائياً.

كما شاهد ديما السنجاب الطائر، وهو أصغر حجماً من السنجاب العادي، منفوشُ الريش، كثيرُ الحركة، يقفز من شجرة إلى أخرى، يمدُّ ساقيه يسوّي بهما ثنايا فروه الناعم، ويتحول خلال لحظات قصيرة إلى طائر حقيقي.

كان الجو رائقاً ورحيباً. وبدت الحياة واضحة ومفهومة. خلّفت جميعَ تناقضاتها وألغازها وراءها هناك، في المدينة، بين الناس الذين لا يعرفون حرية التايغا، ولم يَخبروا ثقل البندقية على أكتافهم.

كان الثلج في الغابة يتخذ أشكالاً مختلفة. أحياناً يمتدّ مَرجاً ناعماً، ترفرف آلاف الفراشات بأجنحتها البلورية فوقه، وأحياناً ينتشر متاهاتٍ ناصعةَ البياض من قنوات شديدة الصغر. وفي البقع الخالية من الشجر، كان الثلج يتقلص تحت أشعة الشمس هضيباتٍ رقيقةً مائلة. وكثيراً ما كان يتجمّع على شكل كثبان خلّفت عليها أقدام الوحوش آثاراً متعرِّجة غريبة الأشكال.

لم تكن تُسمَع أصواتٌ غير هسيس الثلج، ونادراً ما كان يترامى تقصّف أغصان في الحرش.

اضطرَّ الصيّادون للخروج من البيت الشتوي عدة مرات لجلب الحطب، فتعب ديما كثيراً، رغم أنهم منعوه من استخدام المنشار. كان العم وأرتيوميتش يقطِّعان الأشجار، ويطلبان من ديما تجريدها من أغصانها. لم تكن هذه المهمة صعبة، ولكن الأيدي التي لم تألفِ العمل تتعب سريعاً.

- كيف ترى هذه الرياضة البدنية؟ هذا ليس جرياً في الصالة. مسح أرتيوميتش العرق عن جبينه. وليس قفزاً بين المقاعد. أليس أكثر تعقيداً؟

تنهَّد الفتى وهو يلهث. فهو لم يكن يعتقد أنه يمكن أن يتعرق المرء على هذا النحو في البرد.

وفي المساء جلس نيكولاي نيكولايفتش على مقعد قصير القوائم، يحرك حَساء البورْش المغلي، ويستنشق بخاره. يذوق البطاطا والشمندر، يرد على أسئلة ابن أخيه، ويمسِّد خدّيه براحتيه.

كان أرتيوميتش يختار طُعم السمك ليوم غدٍ. وكان فيتيا مستلقياً على السرير. ولكنه خوفاً من لومه على كسله، راح يفحص البندقية من دون حاجة إلى ذلك. وهاجمه النعاس، فارتخت يداه، ومال رأس البندقية نحو الأرض، وراحت عيناه تغمضان. كان أخفضُ صوت ينتشل فيتيا من غفوته، فيعود من جديد يعاين باهتمامٍ سبطانة البندقية تارة، وكعبها تارة أخرى.

استلقى تَمْغا على العتبة يشمّ رائحة طعام العشاء، وينتظر أن يقدموا له بعض الحَساء.

كانت الرياح تُرغي وتُزبد في ظلمة الليل خلف النافذة، فتذروا الثلج، وتضرب درابزين النوافذ المغلقة، وتكسر أغصان الشجر. فكم يطيب للمرء أن يستريح في بيت دافئ، يحميه من البرد.

خُيِّل أن البيت الشتوي صغير جداً، نقطةٌ مضيئة ضائعة في مجاهل التايغا المظلمة. وكلّما اشتدّ زئير العاصفة الثلجية، ازداد الشعور بمتعة الراحة هنا، بين جدران دافئة مشبّعة بروائح شراب الصنوبر، وشوربة البورش، والموقد المتوهج. لا وجود هنا للكمبيوتر، ولا للهاتف، ولا لأصدقاء المدرسة، ولكن ديما لم يعرف الملل. لقد صار كل شيء في منتهى البساطة، الحياة ذاتها، والطبيعة التي تحتضنها.

خطر للفتى أن روعة الصيد تكمن في هذه اللحظات بالذات، عندما ينتهي العمل، ويغدو مسموحاً بأن تسترخي، وتتناول الطعام، ثم تستلقي على سرير بسيط، فيتجمَّع الألم في قدميك، ويمرُّ أمام عينيك المغمضتين الحرش الرمادي، وبالقرب منك تفوح من الموقد رائحة الحطب، ولا حاجة بك للإسراع إلى أي مكان، ولا إلى التحدث عن أي شيء. ما أطيب أن يستمتع المرء ساعاتٍ طويلةً بهذا النعيم، لكن النوم، كأنما لشرٍّ فيه، كان يأتي سريعاً، لا تلحظه.

أراد فيتيا، بعد أن تناول صحنين من الشوربة، أن يخرج ليدخِّن، ولكنه استلقى ليأخذ كلُّ شيء مكانَه في معدته. وهكذا نام من دون أن يخلع ملابسه، وأصابعُه مطبِقةٌ على سيجارة لم يشعلها.

وسرعان ما نام كلُّ من في البيت. وحدَه الكلب تَمْغا ظلّ، لسببٍ ما، يغمغم متذمراً إلى جانب الموقد.

الفصل الثالث



في الصباح سخّن نيكولاي نيكولايفتش على الموقد ما بقي البارحة من حَساء البورش. أكل ديما من دون شهية، فقد كان قلقاً كثيراً بسبب الصيد القادم، ففقد الشهية تماماً. لم يُنَحِّ البندقية عن ركبتيه، حتى عندما جلس حول الطاولة، كأنه يخشى أن ينساها في البيت الشتوي.

- اتركْها. فأنت في جميع الأحوال لن تستعملها الآن. نبّهه عمّه.

لم يجادل الفتى، ولكنه ظلّ يحمل البندقية. فنظر إليه أرتيوميتش وقال بصوتٍ ممدود:

- لقد وجدتَ عروساً، أليس كذلك؟ لكن حذارِ، فإنها سريعة الغضب. - وبعد أن صمت قليلاً أردف:
- وأطفالها أيضاً سيكون لهم طبع هائج.

ردّ الفتى بضحكة فاترة. ودعَك كمّه، ودقّ على الطاولة. فقد أضناه انتظار الخروج.

أخيراً خرج الصيّادون، وسدّوا الباب بقطعة خشب ثقيلة.

فحص نيكولاي نيكولايفتش اللحم المجفف. كان معلّقاً على الحبل مثل ملابسَ داخليةٍ مغسولة، لها ألوان وقياسات غريبة. وربت على عنق تَمْغا، ووقف على الزلاجات التي نُظِّفت يوم أمس.

وصل الجميع معاً إلى طرف الحرش، ثم تفرقوا. كان على كل صيّاد أن يجد طريقه الخاص لصيده في أقرب الأيام. وكان على فيتيا وأرتيوميتش نصبُ الفِخاخ، أما نيكولاي نيكولايفتش مع الكلب تَمْغا فقاما باقتفاء أثر الوحوش وإطلاق النار عليها. في هذا اليوم، ذهب ديما مع عمه إلى الصيد.

سار الاثنان عبر التلال، وعبَرا مرتفعات الوادي بخوف. فقد قطعا ما لا يقل عن خمسة كيلومترات قبل أن يجدا نفسيهما في وادٍ قليل الثلج. هنا بدأ عملهما كصيادَين.

قال نيكولاي نيكولايفتش، إن موسم ثمار الغُبيراء البرّي لم يكن جيداً هذا العام، وهذا يعني أنه يجب البحث عن السمّور بين أشجار الأرز والتوت البري.

كان الكلب يعدو بجانب الصيّادين، وينتظر الأوامر، ونادراً ما كان يندفع جانباً، لكن العم يصرخ به حالاً ويأمره بالعودة إلى الوراء. وكان يسمّيه، على سبيل التندُّر، بـ ديبيل ديبليتش[9].

كان الثلج يتكسَّر تحت الزلاجات، وفكّر ديما، شاكراً لأول مرة، بدروس التربية البدنية في الشتاء، فلولاها لَما استطاع مشي هذا الطريق.

كانت الطيور كسّارة الجوز تتعقب الصيّادين من شجرة إلى أخرى. إنها عصافير صغيرة، منقارها مستقيم كالشوكة، يخالط لونَها البنّيّ ريشٌ أبيضٌ متناثرٌ مثل حبّات ثلج، وتصدح بشدة «فرياك- فرياك- فريا»، ثم تبقبق «تا-تا، تا-تا-تا». كان الفتى يصغي إلى أصواتها مبتسماً، لكن العم لم يشاطره فرحته، فقال له إن هذه العصافير تُفسد علينا الصيد. إنها تنقر حيوان السمّور الواقع في الفخ وتثقب جلده. وكان وجود عدد كبير منها في هذا الشتاء يعني أن على فيتيا وأرتيوميتش أن يشدِّدا مراقبة الفِخاخ.

كان الكلب تَمْغا يكثر من الابتعاد عنهما جانباً، ويُصغي منتظراً صوت سمّور في التايغا.

- هل يمكن أن نرى دبّاً هنا؟ سأله ديما.

- هذا ممكن، لكني لا أنصح بذلك.

- أتصور...

لاحظ نيكولاي نيكولايفتش غزالاً كبيراً لا يقل وزنه عن نصف طن، ولكنه لم يُطلِق عليه النار، لأنه لا يستطيع مع ابن أخيه حمْله ونقله من أجمة كثيفة الشجر. لقد ظلت الزحافات في البيت الشتوي، بل وكان ما عندهم من لحم الغزال المنشوري يفيض عن حاجتهم.

كان الجو بارداً في غبش الفجر، لكن الثلج تساقط في الصباح ونشر الدفء.

ولما انحنى العم على مجموعة من الشجيرات أدرك ديما على الفور أنه عثر على السمّور أخيراً، وهُرِع نحوه، متشوقاً لمشاهدة عملية الصيد، ومعرفة كل تفاصيلها، بدءاً من أولها وحتى الطلقة الأخيرة.

- كن أكثر حذراً، لا تضرب الأرض برجلك، زجره نيكولاي نيكولايفتش. هل ترى؟

- أرى، رد ديما بإعجاب، رغم أن المشهد كان يقتصر على وجود حُفرٍ بُخارية صغيرة في الثلج.

- انظر. نكش العم أثر حيوان بالسكين، فتلاشى الأثر رملاً ناصع البياض. هل فهمت؟

- نعم، هزّ ديما رأسه مرتاباً.

- ماذا فهمت؟ ضحك العم ساخراً. إذا كنت ستفهم كل شيء هكذا، ستبقى بليداً. إن كنت تخشى أن تبدو غبيّاً لن تصبح ذكيّاً ابداً.

قطّب الفتى، وأحسّ حتى في البرد كيف سخّنت حمرة الخجل وجهه.

- لقد انهار الأثر، وهذا يعني أنه جديد، لم يمضِ عليه وقت طويل. أوضح نيكولاي نيكولايفتش. ليس أكثر من ساعة. لو أخرجنا هذا الأثر جامداً في هذا البرد لكان معنى ذلك أنه قديم وعديم الجدوى.

فهم الكلب تَـمْـغا صاحبه من دون أيِّ أوامر. فقد اشتاق إلـى الصيد، ويبدو أنه لم يكن أقل من ديما إحساساً بمتعته. كان يتشمّم الآثار ويجري إلى الأمام. يتبع أنفه يشقّ به الثلج، ولا يرفع وجهه. وكان الصيّادون ينزلقون خلفه، لا تفارق أنظارهم ذيله المعقوف.

لم يعُدِ الآن هناك وقت للرغبة في متابعة التايغا بالنظر، ولا لسماع زعيق الطيور كسَّارة الجوز، أو لاكتشاف مكان طائر القرزبيل. كان ديما ينتظر أول سمّور.

أصبحت الآثار أكثر من ذي قبل. فقد بدأت منطقة الحيوانات الغالية الفِراء. قلّما كان الكلب تَمْغا يتوقف، فقد أربكه وجـود كثير من مختلف الحيوانات هنا. لقد شم جيّداً رائحة هذه الكثرة من الآثار، وشقَّ طريقه متابعاً أثر السمّور الذي اختاره صاحبه.

- إنه ذكرٌ، ناضجٌ، توقف العم. جيّد.

اقترب الصيّادون، ورأى ديما آثاراً جديدة على الثلج: هنا قضى حيوان حاجته.

- لماذا تظنه ذكَراً؟

- هل ترى بَعْراتِه؟

قهقه ديما بصورة لا إرادية عندما سمع هذه الكلمة من فم عمِّه.

- لماذا تضحك؟ إنك بليد حقاً. ستذهب في المرة القادمة مع أرتيوميتش، ومعه ستضحك على البراز.

- معذرةً. أحنى ديما رأسه كي يخفي ابتسامته.

- هناك مسافة بين براز الذكر وبوله، كما أن أقدامه دائرية الشكل، وأثرها في الثلج أعمق.

- نعم.

طار الفرح. كان ديما يستمع إلى عمه باهتمام شديد، فتبين له أن قراءة آثار الحيوانات تشبه قدرة سحرية.

تَمضي سنتان، وتتعلم. فهنا يمكن الصيد من دون كلاب، إن كنت تستطيع أن تحفظ عن طريق الأثر دعسة الحيوان، وطريقة مشيته، وغير ذلك ممّا يتميز به. وهكذا، فإنك تتعرف عليه من بين جميع الحيوانات الهائمة وآثارها، فتتعقَّبه حتى عشّه.

عندما اندفع الكلب إلى الأمام، تسمّر ديما في مكانه من المفاجأة. ثم انطلق خلفه، كأنه نسيَ نفسه. إلا أن زلاجتيه تعثّرتا بغصن، فانطرح على الثلج.

- إلى أين؟ لا تركض هكذا! هل أنت كلب؟ قال العم بخشونة، ولكن بابتسامة.

أحسّ الكلب بالفريسة، فدوّى نباحه في مكان أمامهم، ثم من الجانب، ومن الخلف. كان نيكولاي نيكولايفتش في الانتظار.

- إنه يطارده، أوضح نيكولاي نيكولايفتش لابن أخيه، يدفع الطريدة إلى شجرة، عندها تصبح لنا، إلا إذا حدث الأسوأ، واندسّت بين الأحجار، أو تحت شجرة سقطت، أو تحت الجذوع. عندئذ يحتاج القبض عليها إلى وقت طويل.

- ولا يتخلّى عنها؟ سأله ديما وهو يحبس أنفاسه.

لم يردّ العمُّ عليه.

عندما ازداد النباح، متناوباً مع هرير شديد، ثبَتَ في مكان واحد إلى اليمين. ومن دون كلام أيضاً انزلق نيكولاي نيكولايفتش في اتجاهه.

كان ديما يندفع على زلّاجتيه بقوة. تخدَّر صدره من شدّة خفقان قلبه. ليته لا يخطئ، لا يخيّب ظن عمّه. فقد كان مستعداً لتنفيذ تعليماته، وتوتّرَ كلّه حتى كادت طبلتا أذنيه تنفجران، وهو يحاول ألا يفوته شيء، وألّا يرتكب حماقة. وخاف أن يُفلت السمّور بسببه، فيصفه عمّه بالمغفّل الأحمق، ويرفض اصطحابه إلى الصيد، ويبقيه في البيت الشتوي للقيام بالأعمال المنزلية حتى نهاية موسم الصيد.

ما فعله نيكولاي نيكولايفتش كان صحيحاً، عندما لم يسمح له بإطلاق النار منذ اليوم الأوّل. وإلا لارتبك وأغفل البندقية.

«آه، كان يجب أن أجرِّب الرماية على القطط».

ركض الصيّادون نحو شجرة صنوبر كان الكلب تَمْغا ينبح عليها. لم يكن الحيوان ظاهراً بين أوراق الشجرة، فقد اختبأ. وقبل أن يبحث عنه، طاف العم حول الجذع مبتعداً عنه عدة أمتار، باحثاً

عمّا خلّفه من آثار. فقد كان بوسع السمّور أن يحتال على الكلب، ويهبط منزلقاً عن الغصن إلى الأسفل، ثم يهرب. لم تكن ثمة آثار براز، وهذا يعني أنه على الشجرة. رفع العم البندقية وحرك غطاء حجرة التسديد، ولم يرَ شيئاً. فأرسل ديما إلى الشجرة، إذ كان ينبغي تحريك السمّور من مكانه.

أحس الفتى أن يدَيه ترتجفان من الاضطراب، فتناول فأساً وقشّر جذع الشجرة وراح يقرعه بطرف الفأس الآخر.

قرعه، وتجمّد.

قرعه مرة أخرى.

وفجأة انتعش تَمْغا، وراح يدور في مكانه، ويطلق نباحاً حاداً. فتحرك السمّور! لكن العم لم يستعجل إطلاق النار عليه. وانتظر إلى أن يهدأ السمّور في مكان مرئي. فلو استعجل، قد يلحق ضرراً بالجلد، أو قد لا يصيب السمّور إطلاقاً.

- - ماذا هناك؟ همس ديما.

إنه لم يرَ من تحت الجذع ما كان يجري بين الأوراق.

- اسكتْ! نهَرَه عمّه.

لم يطمئنّ السمّور. فتسلق الجذع، وقفز إلى الشجرة المجاورة. لم يخفض تَمْغا رأسه، واندفع نحوه. لقد بدأت مطاردة مكشوفة، وبات ممكناً نسيان الآثار على الثلج. والمهم هو ألا يختفي السمّور عن الأنظار.

الآن أبصر ديما بين الأغصان هذا الحيوان القاتم الكثير الحركة. لقد هرب من نباح الكلب، فتسلّق جذع الشجرة بخطٍّ متعرِّج، وأسرع بين الأغصان، ثم قفز إلى شجرة أخرى فتطاير الثلج عن أغصانها كالغبار. ولَبَدَ متجمداً، ثم عاد يجري من جديد. ولم يتراجع الصيّاد والكلب عن مطاردته.

حتى إن ديما لم ينظر في أي اتجاه يسيرون، ولا أيّ أماكنَ يعبرون. فمشى رافعاً رأسه. كان يتراجع قليلاً ويضرب الأغصان، فلم يكن موجوداً بالنسبة له، كما بالنسبة لتَمْغا، أي شيء سوى قمم الأشجار.

كان السمّور يطيل الاستعداد لقفزاته هذه، مدركاً أنه، إذا ما سقط، سيقع حالاً بين أنياب الكلب. وتابع ديما حركاته بتوتر، ثم تألّم عندما غاب السمّور عن الأنظار. كان نيكولاي نيكولايفتش هادئاً، يعرف أن الفريسة لن تفلت من يده.

قفز السمّور علـى جذعٍ يابسٍ على الأرض، وبـات مكشوفاً تماماً، إذ لم يكن بوسع إبر الشجر أن تغطيه. ورأى ديما فيه بعض شبَهٍ بالقط. فهو جميل، ذو وبرٍ ناعم؛ وقد خفض رأسه قليلاً وتفحّص مطارديه. وبدت أذناه الدائريتان، الناعمتان، أكثر وضوحاً تحت السماء الفضية اللون. وفجأة دوّت طلقة، مثل اهتزاز شريحة معدِن رقيقة.

أجفلتِ المفاجأة ديما.

كان صدى الطلقة مدوّياً وجافاً.

هوى الحيوان نحو الأرض كومة من خروق، فاصطدم بالأغصان العارية وانقلب وغاص في الثلج.

- Headshot -، همس الفتى بارتباك.

- هُس! صرخ نيكولاي نيكولايفتش.

وثب تَمْغا مسرعاً باتجاه السمّور، وأراد أن يختطفه بأنيابه.

- هُس!

واقترب العم راكضاً، فدفع الكلب جانباً، والتقط الحيوان الهامد، ثم تفحّصه، وعلّقه على حقيبة الظهر مسروراً بمهارته في الرماية.

- الآن قُلْ إننا افتتحنا الصيد، ألقى كلامه إلى ابن أخيه.

وقف ديما في مكانه، لا يتحرك، متعجّباً من أنه لا يشعر بالفرح إطلاقاً. فقد شاهد الصيد أخيراً، بدءاً من أوّل أثر وحتى الطلقة الأخيرة. إلا أن البهجة لسببٍ ما لم تأتِ، فأصاب حماستَه الفتور. كأنه قد خُدِع. كـأن شيئاً آخر كان ينبغي أن يحدث، ثم اقتصر كلُّ شيء على مطاردة لا غير: إطلاق نارٍ، التقاط فريسةٍ، تعليقها، وإلى الأمام.

فكر قليلاً، ووجد أن الأمور كلّها جرت بسرعةٍ فائقة، فقط لم يتسنّ له أن يشعر بالوقت. أكيد أن إحساسه سيكون مختلفاً عندما يقوم هو نفسه بصيد الحيوان. وكذلك أدرك بوضوح أنه ما يزال عليه أن يتعلم الكثير من عمّه. لعل هذه الأمور مجتمعة هي ما عكّر صفوَ ديما. بعثت هذه الفكرة فيه النشاط، فسار في أعقاب عمّه الذي صار بعيداً عنه.

وتكرَّر اقتفاء الآثار.

لم يفارق نظرُ الفتى جثةَ السمّور المقتول وهي تتدلّى معلّقة بحقيبة الظهر التي يحملها نيكولاي نيكولايفتش، وكأنها تحولت إلى ذيل من الفرو لقبعة مصنوعة من جلد السمّور. خطمٌ مكشِّر، عينا

دمية وأنفها. يصعب التصديق بأن هذا الحيوان كان حيّاً.

استراح الصيّادون قليلاً، ثم أضرموا ناراً، وألقوا فيها علبتي لحم متجمّدتين.

سخّن ديما قطعة خبز على النار، وهو ينصت إلى عمِّه.

- إذا كنت تصطاد بالخردق كُنْ دقيقاً، فقد تُفسِد الفروَ كلّه بالثقوب. الأفضل أن تقف بطريقة تجعل جسم الطريدة وراء غصنٍ أو جذعِ شجرة. هل تفهمني؟

أومأ ديما برأسه.

- قف حيث لا ترى سوى الرأس. عندها تطلق، فيتهشَّم الرأس، ولا تمس الفِراء، أما باقي الخردق فيصيب الشجرة. ولا تتعجّل. احذر من أن يبقى عالقاً بين الأغصان، ثم لا تستطيع الوصول إليه.

- ومتى قتلت أول سمّور؟ سأله ديما اعتباطاً.

- لم أقتله، بل قبضت عليه، رد عليه نيكولاي نيكولايفتش.

قبل المساء تعقب تَمْغا الأثر عدة مرات، ونبح على شجرة الصنوبر، إلا أن الصيّادين لم يشاهدوا السمّور مرة أخرى.

عاد الصيّادون إلى البيت الشتوي صامتين. كان ديما يمشي مكتئباً، يفسر حالته النفسية بالتعب من الجولات الطويلة، وبأن الصيد لم يعد عليهم اليوم سوى بحيوان واحد. صحيح أن العم قال إنهم يعودون من الصيد أحياناً صُفرَ الأيدي تماماً، ولا أحد يصطاد أكثر من ثلاثةٍ من حيوان السمّور، أو أربعة حتى في أكثر أيام الصيد نجاحاً.

- لقد جاء مَن نهَش اللحم. - استقبلهم ارتيوميتش في المساء على عتبة البيت. وكان قد عاد مع فيتيا قبل قليل.

- من؟ تعجب نيكولاي نيكولايفتش.

- واضح مَن. إنه الغُراب الأسحم. لقد قلت لكم!

- قد لا يكون ذلك الغُراب الأسحم. ظهر فيتيا عند الباب.

- بل هو، هو!

- ما الفرق إن كان هو أو غيره؟

- الفرق هو أنه كان ينبغي قتلُه فوراً! أصرَّ أرتيوميتش. فاذهب الآن واقبض عليه. إنه يعلم متى يأتي. في المساء لا يقترب...

- طيِّب، وما لكم وقفتم، - لوح نيكولاي نيكولايفتش بيده. دعوني أمرّ.

دخل ديما البيت، فألقى حقيبته على الأرض، واستلقى حالاً على السرير. فهو لم يعرف هذا التعب منذ زمن طويل.

لم يسمحوا له بالاسترخاء طويلاً. كان لا بد من القيام ببعض الأعمال في البيت. وأرسلوه ثانية لجلب الثلج النظيف، فلم يرفض. كان هذا أسهل من تقطيع الحطب.

وبينما كان أرتيوميتش يُعدّ طعام العشاء، سلخ نيكولاي نيكولايفتش جلد السمّور، وعرضه على ابن أخيه. كان ديما قد تخلّص من تعبه، فمسّد الفرو وهو يبتسم. ووصف عمّه الفرو بأنه من النوع الجيد، يصلح للمناسبات، أي أنه ذو وبر كثيف أسود. نوع غالي الثمن. وضعه ديما على خده واستمتع بدفئه الناعم.

- يكفيك، ضحك نيكولاي نيكولايفتش. لحظة وتضعه على رأسك بدلاً من قبعة الفرو.

وضحك لضحكه أرتيوميتش وفيتيا. لم يصطادا أي شيء بعد، لكنهما نصبا الكثير من الفِخاخ، ويأملان أن تطبق قريباً على طرائد. لا بد في الأيام القريبة القادمة من نصب ما لا يقل عن خمسين فخاً.

أخذ نيكولاي نيكولايفتش الجلد من ديما، فقلبه وشدَّه على قطعة من الخشبّ وعلّقه على حبل في الزاوية ليجف في الهواء. كانت جثة السمّور الباهتة معلّقة هناك لتستخدَم طُعماً لصيد الحيوانات. بدا السمّور الآن، وهو مجرّدٌ من فروته، هزيلاً، لا يستلفت النظر، فيه شبَهٌ بالقطة أبو الهول. لا تقول إنه سمّور.

دفّأت نار الموقد البيت. وفي الخارج نادراً ما كانت الريح تصفر، كانت السكينة غالبة. لقد شَلَّ الشتاء الحياة، ولا تخطر المدينة على البال إلا كشيء بعيدٍ وغير حقيقي.

- كان والدي يصطاد السمّور بالفخ، قال نيكولاي نيكولايفتش بعد تناول طعام العشاء.

- بماذا؟ أعاد ديما السؤال.

كان يستلقي على السرير، يستمتع بأنه يستطيع مدَّ رجليه اللتين تئنّان من التعب. «هل يا تُرى يتعيّن علينا الركض كلَّ يوم من أجل جلدٍ واحدٍ؟».

- بالفخ.

- ما هذا؟

- اسمع، اسمعْ. المسألة على هذا النحو. يمشي السمّور دائماً على جذع شجرة مطروحٍ على الأرض. هذا أسهل عليه.

مسح نيكولاي نيكولايفتش دهن شفتيه براحة كفّه، وراح يفركه بين أصابع يده ويرميه كتلاً قذرة.

- يعني، إذا صادف في طريقه أخشاباً فإنه لا يمشي على الأرض، بل يمشي على الخشب فقط. هذا ما كانوا يحسبون حسابه في الماضي. ولا حاجة لأي طُعم.

كان الكلب تَمْغا مستلقياً عند العتبة.

تناول ديما من خزانة صغيرة كتاباً قديماً لا جِلد له ولا كعب، وبكسل راح يقلِّب صفحاته الصفراء.

كان أرتيوميتش يشرب شفْطاً ما بقي من شايه. وعلى الجدران تتراقص ظلال ضوء المصباح.

- فتّش الأب عن الجذع الذي يمشي عليه السمّور أغلب الأحيان، تابعَ نيكولاي نيكولايفتش.

لم يكن ديما يستمع إليه تقريباً. فقد قيل اليوم ما يكفي ويزيد من الحِكم التي تخصّ الصيد. وتجمّع الدفء في عينيه، واضطر لتكويرهما لكيلا تغمضا.

وسمع ضحِكَ الصيّادين، وجذبه حديثهم. وحاول من خلال كلمات عمّه أن يعرف عمّا يتحدثون.

- نعم، نعم، همس أرتيوميتش.

- وهل يحدث هذا عندك بطريقة أخرى؟ لسبب ما سأله فيتيا بمرح.

- شدّ عليها الفخّ، تابعَ العم.

- صحيح، الشيء نفسه، واصلَ أرتيوميتش. وخاصة في مكان عام. في الباص.

- أو في الدكان.

- طبعاً. تريد أن ترتاح قليلاً، اقضِ حاجتك الصغيرة، وفي النتيجة تطلِق القذيفة مثلما من بندقيةٍ ذاتِ ماسورتين، فترتجّ الجدران نفسُها.

هزَّ أرتيوميتش ضحكٌ متقطّعٌ كالنباح، يشبه صوت الثعلب الأبيض. ولمّا عرَف ديما عما يتكلّم أرتيوميتش، همهم مستخفّاً، بفتورٍ ومن دون صوت. فكلُّ مزاحه يدور حول موضوع واحد.

- إذن، كان السمّور يجري على الجذع المطروح على الأرض فلامس الدعامة، لم يلحظ نيكولاي نيكولايفتش جوّ المرح العام، فسقطت خشبة ثقيلة عليه تماماً. خبط الصيّاد بكفه على الطاولة: شَرْمو...اتس!

ارتعد ديما، وأدرك أن النعاس داهمه، حتى قبْل أن يغمض عينيه.

- هذا هو الفخ. لقد انهرس السمّور، وانتهى الأمر. انهرس، ولم يتلفِ الفِراء.

- أَوْلى بك أن تخبرنا كيف نصطاد الغُراب الأسحم، قال أرتيوميتش.

- سأخبرك، أجاب نيكولاي نيكولايفتش على الفور، كمن كان ينتظر هذا الطلب بالضبط. أستطيع منذ الغد أن أنصب له أنشوطة. وينتهي الغُراب الأسحم.

- وما لك والغُراب الأسحم؟ تثاءب فيتيا.

- إنه لا يكفّ عن مضايقتنا. سيأتي كلَّ يوم وينقر اللحم. ثم ستحمل إلى زوجتك ما أبقاه.

- لا، ليس إلى هذه الدرجة...

- سوف ترى. إنه طائرٌ ماهرٌ. نعرف هذه الطيور. سنواجه مشاكلَ مع الطيور كسّارة الجوز، وفوق ذلك يأتينا هذا الغُراب الأسحم. فماذا نعمل؟ نظر أرتيوميتش إلى نيكولاي نيكولايفتش. ألا تنصب له أنشوطة؟

- لقد قلت إني سأنصبها. غداً ستعمل من غرابك طُعماً للسمّور.

- اتفقنا! ضحك أرتيوميتش.

لم يكن ديما يسمع هذا الحديث الآن. فقد هدّه التعب نهائياً. وغفا هكذا، على كيس النوم، وفي ثيابه.

الفصل الرابع



في الصباح، نصب نيكولاي نيكولايفتش ثلاث أنشوطات في آن معاً للإطباق على الغُراب الأسحم وتثبيته في شجرة الصنوبر مقيّداً من رجله بالأغلال. إنه فخٌّ لا ينجو منه حتى الثعلب.

- سيتخبّط فيها مربوطاً ثم ينفُق. وقد ينتظر عودتنا، همس العم.

كان تَمْغا يرنو إليه باهتمام.

كان نيكولاي نيكولايفتش مـا يزال يتفحّص الفِخـاخ، عندمـا توجه الصيّادون الآخرون إلى الغابة. وذهب ديما اليوم برفقة أرتيوميتش كي يتعلم الصيد بالفِخاخ.

انتشرت في أعالي السماء غيومٌ رقيقةٌ، تتخلُّلها خطوطٌ زرقاء. وكانت أذرع الصنوبر تتمايل ببطء شديد، فيتساقط ما تجمّع على أغصانها من ثلج أو جليد.

كان الثلج يهطل كالقطن المندوف.

وفي هذا السكون الرحيب، كانت أصوات الصيادين تخترق الحرش، وتبلغ أماكن بعيدة، فتبعث الهلع والحذر في كل حيوان.

قطع ديما مسافة أول كيلومتر بصعوبة كبيرة، أحسّها في ساقَيه ألماً واحتقاناً. بعد رحلة الصيد بالأمس، كان يتمنّى أن يستريح بضعة أيام أخرى. ولكنّ ما كان يقضّ مضجعه هو أنه ما من أحد ليشكو له. فهو بالتأكيد لن يشكو لأرتيوميتش.

فكّر ديما منذ زمن طويل بالعبارات التي سيَحكي بها لكريستينا عن صعوبات الصيد، ولكنه لم يتوقع أن تكون كلماته على هذا القدْر من الصدق.

«لا بأس، فهذه القصة تستحق الصبر»، شجّع نفسه، وسرعان ما هدأ الألم في ساقَيه اللتين أصابهما خدَرٌ قاسٍ، ولكنه لذيذ. وعاد إليه نشاطه، فشعر بأنه مستعدٌّ للمشي اليوم مقدار ما مشى يوم أمس.

تناول ديما البندقية مرة ثانية، فنبّهه نيكولاي نيكولايفتش إلى عدم استعمالها اليوم، ولكنه أصرّ. فادّعى أنه يرغب أن يعتاد على ثقلها فوق كتفه، فيما كان يحلم بأن ينفرد بقتل سمّور ليُدخل إلى قلب عمّه الدهشة والسرور.

«أكيدٌ أنه لن يمدحني، ولن يتفوّه بكلمة. ولكنَّ موقفه سيتغيّر بعد ذلك. فالصياد يبدأ من أول نجاح».

كان ديما يخشى ألّا تكون مرافقة أرتيوميتش ممتعة جداً، لكنه أخطأ. فقد تبين له أن الصيد بالفِخاخ مغامرة حقيقية، تنطوي على كثير من الألغاز والحِيَل. وسرعان ما جعله الشغف بالصيد ينسى التعب نهائياً.

بعد عبور تلٍّ يغطّيه الثلج، والهبوطِ إلى مجرى النهر المتجمّد، ثم الانتقال عبر مكان محروق يعلوه الجليد، وجدا أوّل أثر لسمّور على درب ضيق، تقاطعت فيه آثار مختلف أنواع حيوانات تلك المنطقة، ويفضي إلى رواسبَ دهنية، لكن هذا لم يكن مهمّاً الآن. فهذا التقاطع بحد ذاته مكان رائع لنصب الفِخاخ.

كان أرتيوميتش يعلّم ديما قصّ الآثار، والبحث عن أكثرها عمقاً وانفراداً، فهناك يكون السمّور قد قام بأكبر قفزة، وسقط على الثلج بكل ثقله.

- إذا نصبنا فخاً هنا ازدادت فرص نجاحنا. إن كل خطوة يخطوها بقوة ستكون لصالحنا. فإمّا أن يمشي بخطوات خفيفة تنقذه، أو أن يقع في الفخ، فنكسِب معطف فروٍ.

ابتسم ديما.

- ماذا يعني هذا للسمّور، برأيك؟ تناول أرتيوميتش من حقيبة الظهر مكنسة صغيرة، ومجرفة مثلها، وعلبة فيها مادة ملفوفة. أن يصبح جلد السمّور معطفاً، هو كما بالنسبة لك أن تصبح طالباً في الجامعة. أن يكون مفيداً! وإلا فإنه لا يفعل في حياته إلا الأكل والتغوّط. حسناً؟ أيّ حياة هذه؟ كأنك لم تعِش. أمّا هكذا، فالحياة رائعة! تلقيه امرأة أنيقة على كتفيها فتلفت أنظار الجميع! لو كبّر السمّور عقله لمضى إلى الفخّ طوعاً. بل ولوَقّف في صفٍّ إلى الفخ!

لكانت حيوانات السمّور شاركت في امتحانات، نختار فيها من بينها من له فراء كثيف، ليقع في الفخ. وطاب نهارك. وليذهبِ السمّور الجربان في حال سبيله. إنه ليس جديراً بأن يُبهج نظر الإنسان. ولكان أدمن السُّكْر حتى الموت من قهره، أو لشنقَ نفسه!

تخيّل ديما بابتسامة كيف يتعامل الصياد الشهم مع الحيوانات الضجِرة، فيفحَص خواصرها، ويلمس ذيلها، وإذا أعجبته يوافق على قتلها، أي يَقبلها في عداد الحيوانات المختارة لإرضاء الإنسان.

«رجاءً، من فضلك! يتضرّع السمّور الأبترُ الذيل، الهزيل الفرو.

- خذوني!»

«هيّا، انصرف، لا تضايقني» - يقول الصياد بنفور ليتخلص من الزائر الممل.

«لا تعاملني بهذه الطريقة! كلُّ إخوتي صاروا قبعاتِ فروٍ، وياقاتِ معاطفَ، فماذا أفعل؟»

«هيّا، انصرف!»

وهكذا أمضى الصياد عدة دقائق في الإقناع، وأخيراً أشفق على سمّور فسمح له بالموت، ووعدَه بأن يرسل جلده لصنع حقائب اليد، أو لتزيين الهدايا.

يعبِّر الحيوان الصغير، والدموع تنهمر من عينيه، عن شكره للإنسان الفاضل، ويضع رأسه تحت المسدّس .Headshot. وتُسدَل الستارة.

- لا، لقد ذهبتَ بعيداً، نظر أرتيوميتش بارتياب إلى ديما، عندما حدّثه عن هذا المشهد الذي تصوّره. هذا مملٌّ، بل وغبيّ. لا بدّ من عنصر إثارة في هذا المشهد. حسناً، فلنذهب. ما زال أمامك متّسع من الوقت لتطلق العنان لخيالك.

ينبغي أن تخرج إلى المكان من وراء شجيرات، أو من وراء شجرة، لكيلا يكون تسلّلُك عبثاً، وأن ترمي حقيبة الظهر، ثم تمشي بخطوات واسعة تزداد خفّة.

انحنى أرتيوميتش، وحفر حفرة صغيرة تحت أثرٍ اختاره، ونصب فيه الفخ بعناية. ترك الحبل خارجاً، وغطى الحفرة بالثلج والأغصان، وربط نهاية الحبل بغصن يابس، وغرزه في مكان غير بعيد بات مربطاً للسمّور، إذا ما وقع في الفخ وجد نفسه مقيّداً، يحاول الهرب، فلا يتعدّى طول قطعة الحبل الظاهرة.

أزال أرتيوميتش آثار أقدامه بمكنسته الصغيرة، ورشّ فوقها طبقة رقيقة من الثلج، ونثر عليها بعضاً من ألياف الشجر. صار الفخ جاهزاً.

توارى ديما خلف شجرة، وراقب جميع تفاصيل نصب الفخ بإعجاب. وشعر بأنه فدائي، يقوم بالتحضير لعمل تخريبي على طريق العدو.

تقدم الصيادون إلى الأمام نحو مئة متر، ونصبوا فخاً جديداً. كانت طبقة الثلج المتجمدة في هذا المكان رقيقة، يصعب الحفر تحتها. اقتلع أرتيوميتش أثر الحيوان ونصب الفخ مكانه، وغطّاه،

وسوّاه بالدرب، ثم رسم بِعصاه أثراً جديداً.

حاول ديما القيام بالشيء ذاته، ولكنه لم يفلِح، وظل عمله نشازاً جليّاً. قال أرتيوميتش ضاحكاً:

- لا بأس، بعد عام أو أكثر لن تعود أقل شأناً في الرسم من أستاذك شيشكين. هذه ليست أكاديمية الفنون، هنا كل شيء حقيقي.

- أجل.

اقتنع ديما من جديد بأن الصيد عمل صعب ودقيق، وأن الرميَ على العلب والجرذان أيسر. ثم قطّب حاجبيه وعبس. وأكد لنفسه أنه لا يجوز الضجر، ولا بد من التعلم، رغم جميع الصعوبات، ولم يستغرب إلا ترديده ذلك من دون حماسة. وأحسّ بشيء من مذاق إخفاقه بالأمس. ولكن لم يكن لديه وقت للتمعّن فيه، فقد كان عليه المضيُّ إلى الأمام.

نصب الصيادون ستة فِخاخ قبل الغداء، ونثر أرتيوميتش قطعاً صغيرة من الطُّعم في أماكنَ غيرِ مطروقة. فالسمّور الشبعان يهتم بالمكان، ويفتش فيه إلى أن يعثر على الطُعم في الفخ.

كان عليهم مراتٍ عديدةً أن يحموا الفخ بستار، كيلا يغطّيه الثلج. وأقام أرتيوميتش على المَفارق أسواراً صغيرة من أغصان الشجر لدفع الحيوان في المسار المطلوب. وبنى أكواخاً للطعام، كي يوجّه مسار السمّور. ونبش أرتيوميتش الأرض في المرج الصغير، فاقتلع الطحالب، وبعثر الأغصان، وحفر الأرض المتجمدة. ثم نصب الفخ وسط هذه الفوضى.

- هذا فنٌّ أيضاً. لوحةٌ زيتيةٌ.

- ماهذا؟ لم يفهم ديما.

- هذا مكان اصطياد السمّور. إنه يحاول جاهداً أن يتخلص من الفخ، فيندفع ويركض بقدْر ما يسمح له الحبل في كل الاتجاهات بجنون. مفيدٌ تصوير هذا المكان. السمّور حيوان فضولي، ما إن يرى المكان حتى يسرع ليشمّه. لكن هذا ليس جريدة ليتصفّحها. ضحك أرتيوميتش وحرّك قبعة الفرو على رأسه. إنه سيزحف ليعرف مَن وكيف صار صيداً، وبأي طُعم. وعندها يقع في الفخ. هذا ما يحدث.

لم تعُد هذه الحِيَل تدهش ديما، فهزّ رأسه بصمت.

«كم يلزم من الوقت لمراقبة التايغا، والسمّور؟ جال في خاطره.

- ينبغي أن تعيش هنا، وأن تُحس بكل شيء. وكل ذلك من أجل الحصول على الفِراء. لكن حتى هذا مفهوم، فالإنسان هو السيِّد هنا، كل شيء هنا ملكٌ لنا».

هزَّ ديما رأسه. لا تعجبه هذه الأفكار. إنها تشغله عن الصيد. يجب أن يحفظ في ذاكرته ما يفعله أرتيوميتش، لا أن يفكر بسخافات.

- ما بِك؟ تعجَّب الصياد وقد رأى حيرة الفتى.

- هذا... لا أعرف إن كنت سأتعلّم ما تفعله.

- وما المشكلة؟ ستتعلم، ليس الأمر صعباً، تذكرْ جيداً ولا تبدِّد طاقتك على تفاهات.

- صحيح تماماً، ابتسم ديما.

لحسن الحظ لم تعُد الأفكار الفارغة تقلقُ ديما في هذا اليوم. لقد ركّز كل اهتمامه على الصيد.

بعد الغداء نصب الصيادون على الأغصان وفي الكثبان الثلجية سبعة فِخاخ أخرى، كان طُعمها من أكواز الصنوبر وشرائح السمك. وغطى أرتيوميتش الفِخاخ بقطع من لِحاء الشجر، ومن الأوراق البيضاء والقماش، ثم أزال ديما بمكنسته الصغيرة آثار أقدامه. فمدح أرتيوميتش ديما على مساعيه ومثابرته، لكنه كان في كل مرة يموّه الفخ بذرّات صغيرة أو بأغصان، مثل فنّان حقيقي يكوّر عينيه قليلاً قبل الفروغ من لوحته، ثم يمدّ يده ليضع عليها لمساته الأخيرة.

زوّد أرتيوميتش أحد الفِخاخ بأداة بسيطة بدت للفتى رائعة. فقد قطع الصياد عوداً رفيعاً جرّده من أغصانه، وثبّته بمسمار في وسطه على شجرة، فحصل على صليب. كانت عارضة الصليب الأفقية أرَقَّ وأخفّ وزناً من جهة، وأثخنَ وأثقل من جهة أخرى. وكانت النهاية الثخينة مائلة نحو الأرض، أما الرفيعة فكانت عالية. هذه هي الأداة كلّها. عقد أرتيوميتش حبل الفخ على النهاية الرفيعة وشدّها فطمرها في الثلج، وتجمدت الأداة رافعة نهايتها الثخينة عالياً.

- عندما يقع السمّور، - أوضح أرتيوميتش، - ينفجر بالزعيق، ويتخبّط فيحفر الأرض حوله، على طول حبل الفخ، طبعاً. وهكذا تنكشف النهاية الرفيعة وتعلو، فيهبط طرفها الثخين بثقله ويعلو السمّور عالقاً بالفخ في الهواء: هاااااي! ورسم أرتيوميتش قوساً واسعاً بحركة من يده. وعندها سيظل يتأرجح حتى نجيء.

- رائع، أومأ ديما برأسه. ولكن لماذا؟

- هل ترى تلك الأكوام؟

- تلك؟

- نعم.

- أراها.

- هناك جرفٌ صخريٌ تحت الثلج. وبعد نحو سبعة كيلومترات تبدأ سلسلة من التلال. هناك تحت الصخور أنواع مختلفة من القوارض الأكبرِ حجماً ممّا في المستودع. إنها قادرة على قضم سمّورك بكل بساطة. عندئذ لن تصنع منه معطفاً، بل غرىالاً من فِراء. تضاحك أرتيوميتش ساخراً. صحيح أن قاق الصنوبر يستطيع الوصول إلى فوق، ولكن مع ذلك بطريقة أهدأ.

في طريق العودة إلى البيت عاين الصيادون الفِخاخ التي نصبوها يوم أمس. لم يظهر أنها اصطادت شيئاً تقريباً. كان فأر حقل قد وقع في واحدٍ منها. فقال أرتيوميتش إن الفِخاخ كانت شديدة الحساسية ما دامت مشية فأر جعلتها تنطبق.

- لقد اعتمدنا على فيتيا. كان علينا نحن أن نقوم بكل شيء.

كان الثلج قد تساقط عن الأغصان، وغطّى اثنين من الفِخاخ، فأعادا نصبهما. ولحسن حظ أرتيوميتش كان في أحد الفِخاخ سمّور. لم يكن ديما قد أدرك بعدُ لماذا ابتهج الصياد وركض، فنبش من كثيب الثلج كتلة فِراء، كأنها قبعةُ فروٍ جاهزة.

راح الفتى يتفحّص الحيوان باهتمام، بل وحمله بيديه. كان صلباً وبارداً، أكثرَ شبهاً بدُمية خشبية، مزيّنة بقِطع من معطف فرو حيوان.

- حتى إني لا أكاد أصدق أنه كان حيّاً، همس ديما.

سمعه أرتيوميتش، فضحك ساخراً:

- قل إنه لم يكن حيّاً. فالأذكى هو الحيّ. هذا الحيوان مخّه صغير، فهو إذاً كالشجرة. حرامٌ ألّا تقطعها حين تحتاج إلى الحطب. أليس صحيحاً ما أقوله؟

- ربّما، ابتسم ديما.

- أم تظنّ العكس! زعق أرتيوميتش، وربط جثة السمّور بحقيبة ظهره، وأردف: - يقال إننا نحن أيضاً كنا نجلس على الأشجار في قديم الزمان. لكننا عقلْنا وهبطنا عنها. والآن نسخِّر كل شيء لأجل سعادتنا. عند الحاجة نطلق النار على جميع حيوانات الجلد الناعم، من أجل فِراشٍ وثير. وهذا هو الصحيح. هناك أصناف من الخياليين، يحبّون الكتابة متذرّعين بأن هذه الحيوانات لطيفة، تبعث على الشفقة. لكنك ابنُ مدينة وتعرف، عندكم كثير منهم. إلا أنهم مع ذلك يأكلون اللحم، ويطلقون الغازات، ويقطعون الغابات، وأيضاً يعطفون على الحيوانات. فلتعلمْ، أن هذا تهريج، لا أكثر. أنا، مثلاً، عندما أضجر، أحب الثرثرة، أمّا هم فيشفقون على أحدٍ ما، عندما يضجرون. ليس ذلك إلا لغواً للتسلية، لتزجية الوقت، فإذا اقتضى الأمر خنقوا هذه الحيوانات نفسَها بأيدٍ عارية، ونهشوا لحمها بأسنانهم. هذا هو الواقع، أقول لك بدقة. بل وبغباء. الثمار نقطفها. الفطر نجمعه. السمك نصطاده. ألّا نصطاد السمّور؟ ألّا نستولي عليه! شيء مضحك، أليس كذلك؟ هل فهمت؟.. - ضحك أرتيوميتش ساخراً. بسبب الكسل يخترعون ما لا تستطيع أن تتبيّن حقيقته حتى تحت ضوء

المصباح. المسألة في غاية البساطة. لو نزل السمّور بدلاً منّا إلى الأرض، لو أدركه العقل، لو اخترع أسلحته، أمَا كان مزّقنا إلى جلدٍ ولحم؟ ربت أرتيوميتش على كتف ديما.

فضحك ديما وهو يتخيّل السمامير صيادين يعيشون في بيت شتوي، وينصبون فِخاخهم ليصطادوا بها الناس.

- وسيكون عليها أن تجد أنواعاً من الطُّعم، - أردف أرتيوميتش. طُعمٌ لك من حبّات الشوكولا، أو الشيبس. وشطيرةٌ مع الجبن أو المرتديلا لاصطياد فيتيا. كلا! بل لحم بالعجين مع المايونيز!

- وأيُّ طُعمٍ لك؟ وجَّه ديما خطابه أوّل مرّة إلى أرتيوميتش بصيغة المفرد «أنت»، وسُرَّ بذلك. فقد شعر بأنه نّدٌّ له، وصيادٌ حقيقي.

- لي؟.. تكفيني زجاجة بيرة، وكَلماري مجفّف، ولا شيء آخر! انفجر أرتيوميتش بقهقهة عالية أصابت ديما بالخوف بادئَ الأمر، ثم شاركه بضحكة لا تكاد تُسمَع.

بعدها فحصا فخَّين آخرين، لم يصطادا شيئاً.

هزَّ ديما رأسه متعجّباً بأيّ سهولة يجد أرتيوميتش الطريق الصحيح في الغابة. فهنا، حيث يصعب الاهتداء إلى طريق البيت الشتوي، يمضي أرتيوميتش بدقة ومن دون تفكير إلى فخٍ صغيرٍ جداً جرّب إخفاءه تحت الثلج «أجل... عليّ أن أتعلم وأتعلم المزيد».

عندما عاد الصيادان إلى باحة البيت، لم يكن الفتى يفكّر إلا بالاستلقاء على السرير بأسرع وقت. فقد تعب كثيراً، إلا أن تعبه لم يكن نابضاً، بل عميقاً ومديداً. وخُيِّل له أن رِجليه قد تورّمتا، وأصبحتا أكثر ثقلاً حتى بات عليه، لكي يخلع جزمته، أن يقطعها بسكين.

كان فيتيا جالساً في البيت الشتوي، ولم يعُد عمّه وتَمْغا بعد.

أوَّلُ ما قام به أرتيوميتش هو فحص اللحم المعلّق على الحبل. لقد فعلت أنشوطات نيكولاي نيكولايفتش فعلها. فتطايرت الملاقط، وسقطت الأوتاد. لقد جرى كل شيء بنجاح. غير أن الأنشوطات لم تصطد شيئاً. فقد جاء من نقر اللحم، واختفت منه تماماً قطعةٌ صغيرةٌ طار بها الغُراب الأسحم.

تبادل أرتيوميتش وديما نظرة سريعة، وتفحصا الأنشوطات التي سقطت. كان ديما يتوقع أن يبدأ أرتيوميتش بالتندّر على نيكولاي نيكولايفتش ووعدِه باصطياد الطائر بسهولة، لكنه لاذ بالصمت.

في المساء خيم الهدوء على البيت. كان العم يطبخ الحَساء، وفيتيا وأرتيوميتش يقومان بسلخ الجلد عن ثلاثة سمامير، اثنان منها قتلهما نيكولاي نيكولايفتش الذي لم يعبِّر عن سروره بذلك. فقد كان

يفكر بالغُراب الأسحم، هذا الطائر البسيط من طيور التايغا الذي جعله موضع سخرية. هذا يعني أن الغُراب الأسحم ليس بسيطاً، يعرف هذا النوع من الفِخاخ، ويعرف كيف تعمل، فخرّبها بسهولة.

كان ديما يريد أن يشاهد سلْخ جلد السمّور، وربما أن يشدّ بيديه فروَته، لكنه كان منهَكاً، ففضّل تأجيل ذلك إلى وقتٍ آخر. وشرع يتلمّس أماكن احتقان الماء في باطن قدَمه، فيخِزها بإبرة، ويعصر بنفورٍ ما فيها من سائل شفاف، ثم استلقى على فراشه، وفكر بالغُراب الأسحم.

«طائر محتال».

تضاحك ساخراً، ونام.

في الغداة ذهب ديما مع فيتيا إلى الصيد. لم يكن يجد متعة في صحبته. فهو ينصب الفِخاخ بطريقة واحدة، ليس فيها ذكاء. يُكثِر الاستراحات والتدخين، ولا يشرح شيئاً تقريباً. يعمل كل شيء بصمت، ولا يطلب مساعدة. وإذا تكلّم، قال أشياء فارغة، لا علاقة لها بالتايغا والسمّور.

ذات مرة ترامى صدى طلقة من مكان بعيد، كان نيكولاي نيكولايفتش يصطاد فيه. فتأسّف ديما لأنه لا يستطيع أن ينطلق لحظتها مسرعاً إلى هناك، ليرى تَمْغا الشجاع.

وقتَ قيلولة الغداء طرح ديما على فيتيا سؤالاً عمّا إذا كان على جسمه ندوبُ صيدٍ حقيقية.

- ماذا تقصد؟ ابتهج فيتيا.

- لنقُلْ... ندبة خلّفها ذئب أو دبّ...

- ندبة الزوجة، هل تُحسَب؟

زمّ الفتى كتفَيه بخجل.

- بالطبع، أنا أمزح. ليس عندي ندبة من زوجتي. لا من الأولى، ولا من الزوجة الثانية... عليك أن تسأل أرتيوميتش عن الندبات.

- مفهوم.

تعجّب ديما حين عرف من فيتيا أن ندبة أرتيوميتش لم تكن نتيجة خلاف فارغ، بل نتيجة تقاسم أخشابٍ شارك في سرقتها من الغابة.

- لقد صار سرّاق خشب مذ كان يرافق والده.

- سرّاق خشب؟

- طبعاً. هو من يسرق الغابة. أو مهرِّب خشب. والمعنى واحد. فهو من أبراموفكا في منطقة أوسين. الحياة عندهم ليست سهلة. لا يوجد عمل إلا في المدرسة، وروضة الأطفال، والمتجر. ولكن هناك تعمل النساء. لذلك لا يذهب الرجل ليشتغل في تلك الأماكن. توجد منشرة خشبٍ للبورياتيين[10]، هناك لا يقبلوننا. أمّا حقول الشوفان فيملكها تتريّ، وقد بنى فيها طاحوناً. فيما يملك كازاخيّ[11] حقولَ الذرة الصفراء. والخلاصة، لا يوجد مكان لنا نعمل فيه. لذلك نشتغل مياومين عند البورياتيين في قطع أشجار الصنوبر ونقلها من الغابة ليلاً. ومن يُقبَض عليه منّا يضربونه ويكسِّرونه، ولا أحد يريد أن يحاكمهم. هؤلاء السراقون كثيرون. إنهم يعيشون يوماً بيوم: عشرةَ أيام يقطعون الشجر، وعشرة أيام لا يخرجون من بيوتهم، يقضونها في النوم وتنغيص حياة العائلة بالنكد. وعلى هذا النحو كان يعيش أرتيوميتش قبل أن ينتقل إلى مدينة أوسو، حيث التقى بعمِّك، وثاب إلى رشده. وعندها أخذه نيكولاي نيكولايفتش إلى الصيد. لكن أرتيوميتش تعّلم، واشتغل سائقَ شاحنات ضخمة. هناك تعيش زوجته وأطفاله. أما الندبة، فهي ذكرى أيامٍ قديمة.

- مفهوم. لم يتوقع ديما أن يكون الحديث محزناً إلى هذا الحدّ.

بعد العودة مساءً إلى البيت الشتوي، تعجّب ديما حين علم أن تعبه لم يكن عميقاً كما ظن. حتى إنه لم يسرع إلى النوم، وسمح لنفسه بنزهة مع أرتيوميتش، لإحضار الحطب. «إني أتعوّد»، ابتسم الفتى وهو يشعر بأنه صياد خبير، لكنه يعترف جزئياً بأن الفضل في هذا يعود أيضاً إلى أنه لم يكن يذهب مع فيتيا بعيداً، ولا بهمّة ورغبة كبيرة.

نهش الغُراب الأسحم لحم الغزال المنشوري مرة أخرى، الأمر الذي أثار قلق الصيادين، وقبل كل شيء قلقَ نيكولاي نيكولايفتش.

كان الحديث عند تناول طعام العشاء متشعّباً إلى أن قال أرتيوميتش:

- ولكن ماذا سنفعل؟

- تقصد الغُراب الأسحم؟ سأله فيتيا.

- ومَن أيضاً...

- ما العمل... التخلص منه. ما دام قد اعتاد فإنه لن يترك عادته، - ردَّ نيكولاي نيكولايفتش بصوت مرتفع وهو يمسّد جلد يديه الأصفر المتيبِّس.

- بالضبط، وافق أرتيوميتش. ولا تستغرب أن يأتي قريباً مصطحباً معه أحداً من أصحابه.

- أعتقد أن هذا مستبعد.

- مَن يدري!

ساد الصمت بعد هذه الكلمات، نظر ديما خلسةً إلى القِدر، آملاً أن يرى فيها بقيّة من حَساء، فخاب أمله. ولم يبقَ له إلا الخبز اليابس، وقد كانت شهيتُه اليوم قوية.

- مرة أخرى، الأنشوطات؟ سأل فيتيا.

- لا جدوى منها، هزَّ أرتيوميتش رأسه. بات واضحاً أنه يعرفها.

- وماذا تقترح؟

نظر الجميع إلى نيكولاي نيكولايفتش، فلم يرفع نظره عن يديه، وقال بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه:

- الجلوس في البيت.

لم يردّ عليه أحدٌ.

نقّلَ ديما نظره باهتمام بين صياد وآخر. فهو لم يتوقع أن يكون كل شيء جدياً إلى هذا الحد.

وأخيراً قال أرتيوميتش بصوت ممدود:

- ليس هذا حلاً محبّذاً.

- ليس باليد حيلة. إمّا إخفاء اللحم، وإمّا إطلاق النار على هذا اللئيم. تجلس وتنتظر. وحالَما يأتي سدّد جيداً واقتلْه - طاااخْ! وضرب نيكولاي نيكولايفتش الطاولة بكفه. ثم نتابع الصيد.

- وكيف نطلق عليه النار؟ سأل أرتيوميتش... إذا انتظرناه في الخارج لن يأتي. وفي المرج لا مكان للاختباء. هل نختبئ تحت الثلج؟

لا توجد كوّة في النافذة المطلة على الحبل الذي يُعلَّق عليه اللحم، ولا النافذة تنفتح من تلقاء نفسها. إنها تتألّف من فُتحتَين: واسعة وضيّقة.

طالب نيكولاي نيكولايفتش بنزع زجاج الكوّة الضيّقة في النافذة الواسعة، والانتظار في الداخل:

- الجو بارد بعض الشيء، لكن لا بأس... ما من حلٍّ آخر.

- واللحم؟ أشار أرتيوميتش إلى الطُعم الذي يتخمّر في البرميل. والجلود؟

- لا شيء، سنغطيها بالخرق، ونضعها بالقرب من الموقد فلا تتجمد.

- لكن، لا أعرف...

لم يدُمِ الجدل طويلاً، ووافق الجميع على خطة نيكولاي نيكولايفتش. فانهمك الصيادون بهذه اللعبة المفاجئة. وحْدَه العم كان ينظر إلى هذه المعركة مع الطائر بوجهٍ عابس.

قبل النوم توصّلوا إلى قرار يقضي بأن يتولّى فيتيا الحراسة، فلم يعترض. كان ديما يرغب بالبقاء معه، إلا أن عمّه منعه:

- غداً ستذهب معي. فقد آن لك أن تتدرّب على إطلاق النار. هذا خامس يوم، وأنت لا شغل لك إلا استهلاك الزاد، والشخير في النوم بدلاً من العمل.

واضح أن العم ليس في حالة نفسية جيدة. ففضّل ديما عدم الرد عليه، أو الاستفسار منه عن أي شيء. كان نيكولاي نيكولايفتش على صواب إلى حدٍ ما. فقد حان الوقت لديما كي يصطاد أول سمّور. «لكنّ كلامه عن الشخير غير صحيح. لا شيء من هذا القبيل. وإلا لكانت أمّي أخبرتني»، - جال في خاطر الفتى، وابتسم ساخراً من غباء هذه التهمة.

وفي الليل أطلق الغُراب الأسحم بالقرب من البيت نعيقاً قويّاً أيقظ أرتيوميتش من النوم. فنهض من سريره، ونظر من النافذة، لكنه لم ير الطائر في ضوء القمر الرمادي، بل رأى شجرة الصنوبر، واللحم المعلّق على الحبل المربوط بها.

- ما لك؟ سأله فيتيا.

- هل سمعت؟

- ماذا؟

- نعيق الغُراب الأسحم في مكان قريب.

- إنه غاضب لأننا هنا في الليل. يخاف أن يحطّ على اللحم.

- هل أخرج؟

- اتركْه لي. بل أنت تخيَّلت أنه جاء. فالغربان تنام في الليل.

- وإذا خرجتُ ومعي المصباح؟

- دعْك من الحماقة، ردّ نيكولاي نيكولايفتش فجأة. ثم غمغم بكلام غامض، وأدار وجهه إلى الجدار. زقزق السرير تحته عدّة مرّات وصمت.

نظر أرتيوميتش إلى شجرة الصنوبر ثانية، ثم تنهّد واستلقى. أنصتَ إلى هدوء الغابة. وسرعان ما أخذه النوم.

الفصل الخامس



في الصباح أشعل الصيّادون النار في الموقد بصعوبة، وانشغلوا بالنافذة، فجمعوا ماكان على رفّها من أشياء مغبّرة. كان نيكولاي نيكولايفتش يخلع بالفأس الألواح الخشبية المثبتة عليها من الخارج، وينحّي المسامير، فيما ديما يدفع الزجاج من الداخل فتناثر المعجون الجاف، وتكسرت زاوية النافذة، وراح العم يعبّر عن انزعاجه، لكنه لم يشتم أحداً.

أخذ أرتيوميتش يمزح ساخراً من فيتيا، وقال عنه إنه تعلم مهنة جديدة هي إطلاق النار على الغربان الوقحة.

- ستصنع عِقداً من ريشها، وتبيعه مثل تميمة تحمي من التواضع.

لم يُضحِك أرتيوميتش بمزاحه أحداً، لكن ذلك لم يُغضِبه، وواصل كلامه الخيالي عن شرابٍ يُخمّر مع مناقيرَ مطحونةٍ، يباع كشراب من قرون الوعول.

عند الوداع طلب نيكولاي نيكولايفتش من فيتيا عدم التدخين، قائلاً بأن رائحة التبغ تخيف الطائر، كما نصحه بأن يطلق الخردق عليه.

- لا تطلق عليه فوراً. دعه ينقر.

- أعرف، أعرف. لوّح فيتيا بيده.

لم يزعجه إطلاقاً أنه مجبرٌ على ألا يذهب إلى الصيد. إنهم يتقاسمون كل شيء بالتساوي، فلماذا لا يبقى يوماً واحداً في البيت؟ لكن ما يحزنه هو طلب أرتيوميتش منه ألا يبقى جالساً من دون عمل.

واتفقا على أن يذهب فيتيا ليعاين فِخاخه، إذا لم يأتِ الغُراب الأسحم قبل الظهر.

ذهب الصيّادون من دون وداع. ونظر ديما إلى المنزل، وانتابه قلقٌ غريبٌ، فأنصت إليه وأدرك فوراً أنه يتمنى للغراب النجاح. لم يكن يرغب في أن تنتهي هذه القصة سريعاً. كانت هذه ثانية مرة يذهب فيها الفتى مع الكلب تَمْغا إلى الصيد. وتفحَّص عن معرفةٍ آثار السمّور، ورفع أحدها بالسكين. وحين وجده قاسياً وبارداً، فهم أن الحيوان قد مرَّ من هنا قبل وقت طويل.

مضى ديما مع عمِّه بعيداً في أعماق التايغاً، لكنه كان يرجع بأفكاره لاإرادياً إلى البيت الشتوي، ويتأسف لعدم تمكنه من البقاء مع فيتيا، فينصت إلى الغابة الكثيفة لعلّ سمْعه يلتقط صدى طلقة بعيدة.

لم يتمكنا من اقتفاء أثر السمّور، فحدّثه عمُّه عن عادات الكلاب. وشرح له طريقة تربية الكلاب السلوقية وكيفية تدليلها وقت الصيد.

- إذا خفّ البرْد فهذا لن يكون مخيفاً، قال العم وهو يمشي. الحلاوة لا تعرقل حركة الكلب.

- الحلاوة؟ دهش ديما.

- أعني الوحل والأوساخ، أوضح نيكولاي نيكولايفتش. ولماذا تبتسم؟

- هكذا يصفون عندنا الفتيات الجميلات.

- كيف؟

- حلاوة.

- عموماً، هل تسمع شيئاً؟ تجهّم العم. أيّ فتيات؟ أين ذهبت بتفكيرك بعيداً؟ عن أي شيء أتحدث إليك؟

- أجل، أنا فقط...

- أعِدْ ما سمعتَه.

أعاد ديما الكلمات التي تقول إن الوحل ليس مخيفاً للكلاب، فهزّ العم رأسه وأردف يقول:

- لكن إذا جاء الصقيع، والأرضُ موحلةٌ، لا يُسمح للكلب بالخروج، لأن الجليد سيمزق أقدامه. فانتظرْ ريثما يغطي الثلج كل شيء. هل فهمت؟

هزّ ديما رأسه، وخطر له أن أرتيوميتش ربما أطلق مزحة عن الفتيات اللواتي يصفهن بالحلاوة، وهو وصف قبيح، لكنه مرحٌ.

شغف العم بآثار السمّور، أما ديما فقد راح يفكر بالغُراب الأسحم ثانية. كيف حاله هناك؟ هل أصابه الخردق، أم أنه يطير إلى البيت الشتوي فقط؟

في ذلك الوقت كان فيتيا يفكر بديما ويتساءل في سرّه إن كان قد قبض على أول سمّور. وقف في الزاوية، وراح يدخن، وقد أخفى السيجارة في راحة يده، وكأنه بذلك يستطيع أن يخفي رائحة التبغ. وسحب الدخان ونفثه، فراح يتصاعد متعرجاً ليصل إلى السقف، ثم يخرج من النافذة.

الجلوس هنا يوماً كاملاً من دون سجائر يميت من البرد. همس وهو يرفع قبة معطفه لتغطي أذنيه.

لم يكن يحس بالبرد، فقد ارتدى من الملابس الدافئة ما يكفيه، سروالان داخليان مزدوجان من الوبر، وسترة، ولَفحة صوفية، وقفازات يدين، وقبعة رأس، حتى بات قادراً على الخروج بهذه الملابس، غيرَ خائف حتى في عاصفة ثلجية.

وقف فيتيا بجوار النافذة في الساعة الأولى من الكمين، وكان يحمل بيديه بندقية نيكولاي نيكولايفتش المحشوة والاحتياطية «سايغا»، ينظر إلى اللحم المعلق عل الحبل، وهو على أهبة الاستعداد لإطلاق النار بين الفينة والأخرى.

أطلّت الشمس عبر الغيوم، وحوّمت طيور فوق المرج، وما تبقّى كان هادئاً وكئيباً. كانت تهب ريحٌ ندية من النافذة، والثلج يتساقط قُصاصاتٍ صغيرة على قاعدة النافذة، لايلبث أن يذوب ويشكّل طبقة جليد قويةً ورقيقة، فأصبحت الدار باردة.

في الساعة التالية، جلس فيتيا على المقعد، وأسند البندقية إلى الجدار، وهو يواصل النظر إلى النافذة. لم يأتِ الغُراب الأسحم، فذكّره ذلك بصيد السمك في الصيف، عندما كان يطول انتظارُه أن تنقر السمكة الطُّعم.

تدفّق النعاس مويجاتٍ رقيقة.

أفاق فيتيا من غفوته الخاطفة ظنّاً منه أن الغُراب الأسحم قد أفلت منه، بعد أن نقر اللحم وطار. فرغب الصياد بالخروج لفحص الحبال، والبحث عمّا بقيَ عليها من علامات طرية، ولكنه أقنع نفسه بأن هذه الشبهات حماقة، لأن الغُراب الأسحم لا يأتي لثوانٍ معدودة.

تواصل الانتظار.

خرج فيتيا من الباب لقضاء الحاجة، ولكنه لم يذهب بعيداً عن العتبة. وبعد أن عاد وضع بعض الحطب في الموقد، وجلس يراقب من مكمنه، يعذِّب نفسه بأفكارٍ معقّدة.

دخّنَ وتثاءب.

أخذ فيتيا ينظر خالي البال إلى النافذة، والجدران، وإلى يديه. كان يبتسم أحياناً، إذ يتذكر مزحة من مزحات أرتيوميتش. وتظل الابتسامة وقتاً طويلاً لا تبارح وجهه، وإن لم يعد ثمة ما يستدعي الابتسام، حتى بعد أن يطوي النسيانُ المزحةَ، ويحل محلها مللٌ لصيق، عميقٌ يعيشه في السنوات الأخيرة. فقد تعلَّم من عمله حارساً أن يجلس طويلاً لا يتزحزح من مكانه، ينتظر متى ينتهي عمله، ومتى تنتهي الحياة.

فكّر فيتيا بديما ثانية. كان الفتى يحظى بإعجابه. فهو أيضاً كان فتىً مثله ذات يوم، يافعاً، وعَجولاً، وأحمق. وقد تعلّم النوم وهو مستيقظٌ، بعد ذلك بوقت طويل. أكثرُ ما كان يتمنّاه فيتيا هو أن يستلقي دافئاً، بين النوم واليقظة، ينظر بعينين شبهِ مفتوحتين، يستمع كيف يعيش ويتحرّك حوله مَن هم مثل ديما، فينصت في شبه غيبوبة إلى ضحكهم، ويتفاعل معهم بنصف ابتسامة. لا يذهب إلى أي مكان، ولا يفكر بأي شيء. فقط أن يعيش، ولا شيء آخر.

نحو الساعة الثانية، راح فيتيا يتجول في البيت، بعد أن أضناه الملل ونال البرد منه. فحاول أن يقرأ كتاباً، ولم يستطع تطويع نفسه للقراءة.

دندن بهدوءٍ لحنه الموسيقي المفضّل. النوكترون التاسع لشوبان. فقد كان فيتيا يعزفه لزوجته الأولى. وقدَّمه لخيرة طلابه في المدرسة الموسيقية ليحفظوه. والآن، من غير بسمةٍ، تزحلقت على سطح الطاولة أنامله الثقيلة التي اخشوشنت. كانت أصابعه تنقر الخشب بجفاف، إلا أن الصياد كان ما يزال يتذكر ملمس مفاتيح البيانو الرخوةَ الملساء. وفي مكان بعيد تردّد صدى دندنته، وبَرْعَم صدى أنغامه الكريستالية الرنين على بيانو Petrot ذي القوائم المصقولة الثلاث، الذي باعه منذ أمد بعيد، وحل الآن محله بيانو «زاريا» الخشن.

«كُلُّ شيء سينتهي ذات يوم، حتى نوكترون اللحن الموسيقي المفضّل لديّ».

شدَ فيتيا قَبضة يده متأسفاً، فقد انقطع حتى هذا اللحن قبل أن يخترق صمتَ الغابة.

- انظروا، ما أشطرَ كوليا... همس الصياد.

في الساعة الثالثة أعدّ فيتيا الشاي. لم يعد لديه أمل بأن يرى الغُراب الأسحم. فأفرغ البندقية.

ألقى وجهه على راحتيه المفتوحتين، وهو يتثاءب، وحاول أن يدندن شيئاً ما لشوبان، ولكنه سرعان ما لاذ بالصمت.

حلّ المساء.

لم يعد الغُراب الأسحم إلى اللحم.

خرج فيتيا من الدار بعد أن شاهد أرتيوميتش.

- هه؟ سأله أرتيوميتش، أرِني الفريسة!

- لا شيء، لم يأتِ الغُراب الأسحم.

- يعني، كيف لم يأتِ؟

- ببساطة، لم يأتِ.

- يتسلّى بنا، يا لَلعجب!...

كان ديما يبتسم وقت العشاء. مضحك، كيف يحتال الغُراب الأسحم على الناس. يستحقُّ الثناء.

كسر نيكولاي نيكولايفتش الجليد الذي تراكم على النافذة، وأعاد زجاجها إلى مكانه. ثم سدّ الزاوية الفارغة بقطع من ورق السولوفان. وأجّل دهن الشقوق الآن.

لم يكن العم راضياً على هذا اليوم. لا هو تمكّن من صيد سمّور، ولا الكلب تَمْغا اكتشف أثراً طرياً واحداً. وابن أخيه أضجره بحماقته. بل ومرة أخرى سخر منه الغُراب الأسحم. وعبثاً أبقوا فيتيا في البيت، بينما الطيور تسرح وتمرح بين فِخاخه. طلقتان خلبيتان[12]: الأنشوطات بالأمس، والكمين اليوم.

استشاط العم غضباً، فكان ديما، كالعادة، أوّلَ من طاله العقاب. صبّ نيكولاي نيكولايفتش جام غضبه على ابن أخيه، لأنه أدخل البندقية إلى البيت الشتوي فوراً، قبل أن ينفض ما تجمّع في فوهتها المفتوحة من ثلج سوف يذوب بفعل الدفء في البيت.

- هل تعتقد أن ترك الماء في البندقية فكرة جيدة؟

- لا.

- بماذا كنت تفكّر، إذاً؟

هزّ ديما كتفيه، فألهب غضب عمّه من جديد.

- ومع ذلك فغريبٌ، كشط أرتيوميتش بقايا الأرز واللحم، أنّ الغُراب الأسحم الذي كان يطير إلى هنا طول الوقت، قد توقَّف عن ذلك، ما إن قرروا نصْب الكمائن له...

- أجل إنه أمر غريب، وافق فيتيا.

- أم أنه كان هنا، ولكنك لم تلحظْه؟

- معلوم، استاء فيتيا. إن كنت لا تصدق، اذهب وشمّ رائحة البندقية.

- شُمَّ رائحة بندقيتك أنت، قهقه أرتيوميتش. لم يأت الغُراب الأسحم، وانتهى الموضوع.

- قد يكون أخذ ما يكفيه، أو أنه هاجر إلى أماكن أخرى. من يدري.

- هل أمكنه أن يشتبه بوجود كمين؟ سأله ديما.

- بالطبع، ضحك أرتيوميتش ساخراً. لقد أرسل زوجاً من طيور كسّارات الجوز للاستطلاع، واشتبه.

كان الحديث متقطِّعاً، وكثيراً ما يهدأ بعد أن يبدأ بصعوبة.

سكب فيتيا الشاي لنفسه، وراح يتحدث كيف كان يترصّد الغُراب الأسحم، وهو يرتجف من سماع كل صوت. كان أرتيوميتش يسخر منه، وفيتيا لا يعارضه. ثم قال إن أكثر الأشياء صعوبة هو الجلوس من دون تدخين. نظر الفتى إلى الصياد مندهشاً، ونظّف المرمدة في الموقد قبل وجبة العشاء. لم يحدد العم بعدُ طريقة يعاقب بها ابن أخيه على عدم اهتمامه بالبندقية، وأرغمه على القيام بذلك رغم تنظيفه المرمدة صباحاً، بينما كان الصيّادون يستعدّون للذهاب إلى الصيد. كان الفتى قد عثر في الرماد الطريّ على أعقاب سجائر ونسيَها، ثم تذكّرها الآن. هزَّ رأسه استغراباً، عندما واصل فيتيا حديثه عن اشتهائه السجائر، وكيف كان عليه أن يتحمَّل عذاب هذه الرغبة الغبيّة بسبب الغُراب الأسحم اللعين. عبس ديما، وشعر الآن بالكراهية تجاه فيتيا جرّاء كذبته التافهة. بات الجو محرِجاً وكريهاً. كأنه نقَعَ ملابسه في مياه آسنة. فظلّ طول المساء يردُّ على نوادر فيتيا بابتسامة قصيرة متقززة.

بعد العشاء جلسوا صامتين. لم يكن قد حان وقت النوم، ولا استطاعوا نسج حديث.

كان فيتيا وأرتيوميتش مشغولَين بترتيب الفِخاخ والطُّعوم، فيما نيكولاي نيكولايفتش يتفحّص فِراء ما اصطادوه من سمامير.

- يمكن الآن إنزالُ اللحم، تمتم أرتيوميتش أخيراً. فقد جفّت الجلود كفاية.

- كلّا، ردَّ نيكولاي نيكولايفتش بهدوء.

نظر أرتيوميتش إليه ليسمع توضيحاً منه، لكن العم لاذ بالصمت.

- كلّا، إذاً كلّا. أنت أدرى.

- أدرى، وافق العم.

خيّم الصمت من جديد.

- ليتنا دعونا السيّاح إلى هنا، قال فيتيا.

- ولماذا؟ تعجّب أرتيوميتش.

- لكي يدفعوا لنا نقوداً.

- مقابل ماذا؟ مقابل الاستمتاع بمنظر بنطالك المتعدد الألوان؟

ابتسم ديما لا إرادياً. لولا أرتيوميتش كان العيش في البيت أسوأ.

- كلا، مقابل الصيد. لقد شاهدت رحلات السفاري الأفريقية، واصل فيتيا حديثه. هناك يدفع الشخص خمسة ملايين ليقتل وحيدَ القرن.

- خمسة ملايين ماذا؟

- روبل، بالطبع.

- ولماذا يدفعون بالروبل في أفريقيا؟

- أيّ روبل؟.. تجهّم فيتيا. هل أقول لك بالدولار؟

- حتى ولو بالتوغريك![13] وفي كل الأحوال، لا أفهم ما حاجتهم إلى وحيد القرن هذا؟ أي فائدة ترجى منه؟

- ولو من دون أيِّ فائدة. فهم يدفعون ببساطة، لأجل القتل. يمكن قتل زرافة أو فرس بحر، فهما أرخص.

- وماذا بعد؟ لم يفهم أرتيوميتش.

- ماذا؟

- حسناً، قتلَه وماذا بعد؟

- لا شيء. خذْ صورة معه. و... لا أعرف... احكِ للأصدقاء!

- كلام سخيف.

- سخيف؟! لقد شاهدت ذلك بنفسي، عرضوه على شاشة التلفزيون.

- هذا يعني أنك لم تشاهد جيداً. إذا قتلوا وحيد القرن، يأخذون جلده، وقرنيه.

نفض فيتيا يده وتوقف عن الجدل.

ساد الهدوء في البيت الشتوي من جديد.

حاول ديما قطع حبل الصمت.

- المهم هو ألّا أحكي شيئاً من هذا لمعلِّمة الجغرافيا.

- عن أي شيء؟

- عن الصيد.

- ولماذا؟

- هي ضد الصيد، وضد معاطف الفرو، وكلِّ ما شابه ذلك. تطالب بحماية الطبيعة، وتقول إن الملابس التركيبية تضمن لنا الدفء في الشتاء أيضاً.

- السبب هو أنها لا تملك من المال ما يكفيها لشراء معطف فرو.

- تضاحك أرتيوميتش ساخراً.

- لا، إنها تؤمن بذلك جادّة.

- أجل الجميع جادّون، عندما لا يكفي المال لشراء معطف من الفرو.

وافق فيتيا بذبول.

- إنها حمقاء! ردَّ نيكولاي نيكولايفتش فجأةً.

وبحركة سريعة فتح باب الموقد، وشرع يقلِّب الأخشاب المشتعلة بمِحراك مصنوع من قوس البنّائين.

- مَن؟ ضحك أرتيوميتش.

- هذه المعلِّمة حمقاء. وهذا كل شيء. إنها ليست أذكى بشيء من سيّاحكم هؤلاء مع حيوانات وحيد القرن. ونظر العم إلى ابن أخيه.

- لماذا؟ سأله ديما بهدوء.

- لأنه ينبغي التفكير بالعقل، قبل حشو رؤوس الأطفال بالكذب. إنها تهتمّ بالطبيعة... وماذا، عن كون معطفها القصير يحتاج قبل كل شيء إلى صنع ألياف كيميائية؟ هل تفهم؟

هزَّ ديما رأسه.

- ومن أين... وضع نيكولاي نيكولايفتش المِحراك جانباً، وراح يدسّ في الموقد أخشاباً من جديد. لو أنك فكرتَ من دون معلِّميك، لأدركت أنه لا بد من الألياف الكيميائية، وهذا يتطلب حفر آبار، وضخَّ النفط منها. أليس كذلك؟ وضخ النفط يحتاج إلى أنابيب. صحيح؟ يعني أنه يحتاج إلى قطع كيلومترات من أشجار التايغا، من جذورها. دقَّ نيكولاي نيكولايفتش الأرض بكفِّه.

- نمدِّد الأنابيب ونضخُّ النفط إلى المصانع. والمصانع تنفث دخاناً، وتصنع الخيوط التركيبية، وفي الوقت نفسه تغمر المنطقة بأطنان من مختلف أنواع السموم. هل تفهم؟ هذا هو الاهتمام بالطبيعة. ذلك أن هناك من لا يرى عقلُه أبعدَ من أرنبة أنفه. فقد ترسخ في ذهنهم أن الحصول على الفرو شيءٌ سيّئ. أما نحن هنا، كما تعلم، لا نطرح المواد الكيميائية. بل ببساطة، نأخذ ما تعطينا الطبيعة نفسُها. والسمامير، كما تعلم، لن تصبح أقلَّ عدداً. لأن ثمة حدّاً للصيد، ولتعويض النقص في عدد الحيوانات. هل سمعت بهذا؟ كيف تراه؟

لم يردّ ديما بشيء. خفض رأسه، ونظر إلى الزاوية. فهو لم يتوقَّع من العم رد فعل من هذا النوع. وطبعاً، لم يكن يعتزم الدخول في نقاش معه.

«حسناً، لتكنِ المواد الكيميائية، وانتهى الأمر. فلماذا ينعت المعلِّمة بالحمقاء؟»

بعد كلمات العم المدوية، عاد السكون ثانية، يخشخش وينسكب مثل الرمل. وفي الخارج كانت الريح تزمجر قليلاً.

كان ديما يجيل النظر في الغرفة، وهو جالس على السرير، وظهرُه إلى الجدار. بدت هذه الغرفة المكتظة بأدوات الصيد أكثر ضيقاً مما هي عليه جرّاء الإضاءة الضعيفة. وكان الفانوس الهزيل على الطاولة يملأ البيت الشتوي ببقع ضوء حمراء، وظلالٍ متعرجة. وكانت تفوح رائحة الدفء والعتمة. لو استطاع ديما لجاء إلى هنا بمزيد من الأشياء كي يضيع فيها تماماً. ولكان أضرم في الموقد ناراً عظيمة، فأقام هنا حمّاماً وخلع ثيابه كلَّها. كان ثمة شيء ساحرٌ، على النقيض من شتاء التايغا والبيت المريح. وكان جدارٌ خشبيٌ رقيقٌ يحمي الناس الهاجعين بأمان من رياح الجليد، ومن الوحوش. زاد ديما ظهره التصاقاً بأخشاب الجدار، وكأنه قادر بهذه الطريقة على الولوج بعمق أكبر في هذا التناقض.

أصبح التنفس رحباً، وأبطأ الزمن.

غاص البيت الشتوي في الليل حتى القاع، وخيّمت فوقه غابة أبدية كثيفة.

تجمّد ديما. كان يخشى أن يخيف بأقلِّ حركة هذا الوسواس. وكان الصيادون جميعهم يحسون به. ولم يكن الفارق الآن في العمر وفي الآراء كبيراً. لقد طوى النسيان غضب نيكولاي نيكولايفتش، ورقَّ كذب فيتيا، ونكاتُ أرتيوميتش الفظة، وصار كل شيء شفافاً. وامتزج الصيادون في إنسان واحد من غابر الزمان، أعزلَ، ينظر إلى العالم اللانهائي حوله.

نبح الكلب تَمْغا، وارتعد ديما. وسرعان ما زالت غشاوة النعاس عن عينيه. لقد منحتهم هذه الغفوة القصيرة حيوية مفاجئة. أما الكلب تَمْغا فقد واصل النباح، وخرج إلى عتبة البيت، يدور وينبح. فالتفت الصيادون إليه متعجّبين.

ركض الكلب تحت الطاولة، واندسّ تحت مقعد بالقرب من أرتيوميتش، وراح ينبح بقوّة أكبر من ذي قبل، ويمدّ خطمه نحو جلود السمّور وقِطع اللحم المعلقة في الزاوية.

انفجر أرتيوميتش ضاحكاً، وأدرك أن الكلب تَمْغا ظنَّ، وهو في حالة بين النوم واليقظة، أن تلك الأشياء حيواناتٌ حيّة. وفي هذه اللحظات كان ضوء الفانوس يخفق، ويحرك فراء الحيوانات المقتولة، فيتخيَّل أنه الآن مع الصيادين في الغابة.

تحول أرتيوميتش، وهو ينظر إلى الكلب المنفعل، من ضحك هادئ إلى قهقهة، وأخذه الضحك حتى كاد يختنق. أصابت عدوى الضحك فيتيا رغماً عنه. وحتى نيكولاي نيكولايفتش ابتسم. وسرعان ما هدر البيت الشتوي كلُّه بضحك الصيادين، فلا يزيد هذا الصخبُ وغباءُ الكلب نباحَه إلا قوّة. فشرع تَمْغا يهجم على الجدار ويخدشه بمخالبه.

ولم يستطع ديما أيضاً أن يتمالك نفسه، لكنه بعد ذلك رأى تحت الأضواء الحمراء وجوه الرجال الضاحكةَ فصمت، وكتم غيظه.

«كأنهم موتى، معلّقون على إطار حقيبة الظهر، ومستعدّون طوعاً للسلخ بالسكين»، جال في خاطر ديما وهو يضمّ ركبتيه، وينكمش على نفسه.

سال دمٌ كثيف على جدران البيت الشتوي، وراحت آلاف من فئران الغابة تقضم أساساتها. وتزاحمت الطيور كسّارةُ الجوز بمناقيرها الحادة عند النوافذ. كان الغُراب الأسحم ينعق على السطح. وتحركت الأشجار المحيطة بالمرج نحو البيت، فطوّقته استعداداً لتمزيق الصيادين برؤوس أغصانها الحادة. واحتدمت قعقعة الفِخاخ التي ساقتها أمواج الثلج إلى هنا من جميع أنحاء التايغا، بُغيَة الإطباق بها على الصيادين الذين صنعوها.

غطس ديما في كيس النوم وزرَّره تحت ذقنه تماماً.

ليغفو سريعاً.

في هذه الأثناء خمد الضحك. وحدَه أرتيوميتش كان في أحيان نادرة ينفث ضحكاً محبوساً، ينظر إلى تَمْغا، ويتوقع منه مسرحية جديدة. إلا أن الكلب أدرك خطأه، وهدأ.

وأطفأ نيكولاي نيكولايفتش المصباح.

الفصل السادس



هبت عاصفة ثلجية في الغداة، فقد ثارت ثائرة التايغا برياح محملة بالثلوج. وبلغ البرد، النافذُ عبر الباب المفتوح قليلاً، درجةً جعلت حتى الكلب يفضل الاختباء عند الموقد. وقف نيكولاي نيكولايفتش على العتبة، ونظر إلى الحرش كمن يستطيع أن يتبيّن علامة على تحسُّن الطقس قريباً. لم تكن هناك علامة، مثلما لم يكن في الغابة الكثيفة حيوان. ففي هذا البرد لا يخرج من جحره سمّور ولا سنجاب. تنهد نيكولاي نيكولايفتش مدركاً أنه لا خروج اليوم إلى الصيد، فأوصد الباب.

غاب صفير الريـاح الثقيل فـي الحال. ومن جديـد ترامـت هسهسة الأخشاب المشتعلة في الموقد.

لم يكن ديما أقلّ كدراً من عمّه. كان مستعجلاً ليربط صيده الأول بحقيبة ظهره بأسرع وقت. وكان على يقين من أن كل بواعث قلقه ستتوقف بعد ذلك. فقد كان من الغباء أن يسمّي نفسه صياداً ويرجع إلى المدينة، من دون أن يرى الدم على يديه. إنه لا يرغب بأن يخدع ساشكا وكريستينا. لا بدَّ أن يصطاد بطلَقة نارية ولو حيواناً واحداً ليحق له بعد ذلك أن يتحدث عن عشر طلقات صائبة. وليت عمَّه يسمح له باصطحاب البندقية معه إلى المدينة كي يريها لأصدقائه.

جلس الفتى أمام النافذة، وفي رأسه تدور هذه الأفكار، وهو بالكاد يصغي إلى ما كان يحكيه أرتيوميتش عن الصيادين الذين ترغمهم العواصف الثلجية أحياناً في منطقة تشوكوتكا على البقاء محبوسين أسبوعين، يتبادلون التعذيب بالصمت.

كان النهار طويلاً على نحوٍ لا يطاق. حتى النوم لا يأتيهم. والراحة المفاجئة عبء ثقيل. فالجسم الذي تعود على الدروب البعيدة يحتاج إلى شيء يفعله.

ولكي لا يسمح نيكولاي نيكولايفتش لابن أخيه بالتراخي، كان يحدثه عن صيد السمّور. إلا أن كل هذه العِبَر الحكيمة كلامياً، من غير فعلٍ، كانت تضجره. فكان ديما يومئ برأسه موافقاً، ولكنه لا يلقي بالاً تقريباً إلى ما يسمعه.

لم يكن يهتم إلا باستخدام البندقية.

- هذا أفضل صديق لك، يشرح له عمّه وهو يمسّد البندقية. - هذا أفضل ما صنعتْه يد الإنسان. فالكائن العاقل يختلف عن الكائن غيرِ العاقل بأنه يحسن إطلاق النار، والرمايةَ بدقة. هل تفهم؟ ومهما قيل لك هناك في المدرسة، فإن عالمنا لا يقوم على الموسيقى أو على كتبك، بل يقوم على البارود. جميل أن تجلس وتقرأ الشاعر بوشكين، ولكن عندما تحل بك مصيبة فإنك لن تتذكر الكتب، بل البندقية. وستفرح بأنك لم تنسَ العناية بها في الأوقات العادية.

كان ديما يهزُّ رأسه وهو صامت. عموماً، هو يشاطر عمّه هذا الرأي. جميل أن يكون عندك بندقية في غرفتك فوق السرير. ابتسم وهو يفكر بالهستيريا التي كانت ستفجّرها أمه في البيت. تكفيها بنادق والده.

بيّن نيكولاي نيكولايفتش لابن أخيه كيفية اختبار عيار الأمان، وكيف يضرب كعب البندقية بالكف لفحص آلية الزناد.

- إيّاك أن تغلق دماغ رأسك. لا تدقَّ على زرّ الزناد، وإلا اخترقت الرصاصة رِجلك فكانت فريستَك الوحيدة.

كان فيتيا في ذلك الوقت يقلب جلود حيوانات السمّور التي اصطادوها أوّلاً، وبعناية يزيل كتل الصمغ العالق بوبرها. فيما انصرف أرتيوميتش إلى جلود الحيوانات التي اصطيدت في الأيام الأخيرة، وبخرقة يزيل بقع الدهن الظاهرة عليها. يقول مازحاً، وهو ينظر إلى الجثث الهزيلة، إن الحيوانات التي اصطدناها وتنعم بالدفء هنا، أفضل حالاً من أخواتها في الغابة الباردة. ثم راح يُعِدّ الطُّعوم من اللحم المتخمر في براميل صغيرة.

هكذا مضى النهار في مشاغلَ صغيرةٍ، وأحاديثَ بطيئةٍ. إلا أنه كان مضنياً وبدا لانهائياً، وإذا به ينفد فجأة، ويحلّ الليل.

هدأت العاصفة بحلول الظلام، ولفظتْ أنفاسها الأخيرة صفيراً تحت النافذة، واعدةً بنومٍ هادئ، رغيد.

لم يكن الصباح فد أشرق بعدُ، عندما انسلَّ فيتيا وأرتيوميتش من البيت الشتوي، وذهبا إلى الصيد. كان لا بدَّ من الإسراع بالكشف على الفِخاخ المنصوبة، فقد تكون العاصفة غطّتها بكثبان الثلج، أو أطبقتها تماماً بغصن سقط من شجرة.

بعد مضيِّ نصف ساعة خرج نيكولاي نيكولايفتش، وديما، والكلب تَمْغا من البيت.

كان الجوُّ صافياً، يملأ النفس بهجة.

ألقى العم نظرة إلى لحم الغزال المنشور، وقال إنه ما يزال في حاجة لأشعة الشمس نحو يومين آخرين. أخفى ديما ابتسامته. ظنَّ أن العم لا يرغب بنقل اللحم الآن إلى البيت، كي لا يبدو ذلك تنازلاً للغُراب. كان نيكولاي نيكولايفتش سيّدَ التايغا هنا، حتى إنه لم يخطر على باله إطلاقاً أن ينازعه على سلطته هذه أيٌّ كان، لا الدبُّ ولا الذئب، ولا الغُراب الأسحم، طبعاً، وعلى وجه الخصوص.

شعر ديما بأنه غازٍ يجوب الغابات التي استولى عليها من الهنود الحمر قبل حين. فقد اختبأت بقايا القبائل في أكواخ نائية، وراحت تراقب العدو، وتنهبه حين تواتيها الفرصة، وتهاجم أفراد الحرس. تخيّل ديما الغُرابَ الأسحم في هيئة زاهية الألوان لهندي أحمر من قبائل أباتشي تنتصب على رأسه ريشة، ينتقم للتايغا، ويسرق اللحم الذي يحمله الصيادون المحتلّون.

كان الفتى يأمل أن يعود الغُراب الأسحم مرة أخرى، وتمنّى له التوفيق، لكنه نسيَه ما إن وجد نفسه في الغابة. الآن كلُّ أفكاره مشغولة بالصيد، بضرورة تسديد الطلقة الأولى بدقة لكي لا تتلف جلد السمّور، ولا تمزقه عبثاً.

كان الجو هادئاً، لكنه غير مستقر. أخذ الثلج يتساقط ندَفاً رمادية، وانتشرت فوق التايغا غيوم قاتمة. بعد دقائق أشرقت الشمس على المنطقة، وفاضت عليها بالدفء والبهجة. وفجأة زمجرت رياح الشتاء عاتية، فجعلت الأشجار تنحني وتتصدّع بصخب، ثم سرعان ما عادت ندَف الثلج القطنية تتساقط من السماء من جديد.

بالأمس تراكمت ثلوج كثيرة، راح الكلب تَمْغا يشقّها بحذر، مخلِّفاً وراءه خطّاً عميقاً. بينما كانت آثار الحيوانات ظاهرة، وكلّها حديثة العهد. فقد استعجلت الثعالب والسناجب والسمامير كي تعوِّض ما فاتها للحصول على طعام.

على بعد خمسة كيلومترات من البيت الشتوي أصاب العمُّ سمّوراً منفوشاً، أسود اللون، لم يلجأ إلى الهرب، بل لبد فوراً على شجرة صنوبر كبيرة، آملاً أن تحجبه الأغصان، فلا يراه الصيّادون.

بات ديما أكثر هدوءاً وهو ينظر إلى جثة الطريدة تتمايل على حقيبة الظهر التي يحملها عمُّه.

داهمه القلق عندما انحنى نيكولاي نيكولايفتش وقت الظهيرة على الثلج وقال:

- هذا لك.

- ماذا؟

- السمّور. ألا تراه؟ هذه البصمة الصغيرة، البيضوية، القليلة العمق، تعني أن السمّور أنثى، أو أنه لم يكمل العام بعد. ليس فراؤه رائعاً، لكنه جيد كصيدٍ أول. إنه البداية، وبعد ذلك سنرى.

أخذ الكلب يقتفي الأثر، يتبعه ديما مسرعاً، وهو مضطرب.

انهالت عليه الأفكار والشكوك والمخاوف دفعة واحدة. تمنّى أن يفحص البندقية ويسأل عمَّه من جديد كيف يسدِّد وإلى أين. تجهّم ديما، ونفض يديه من كل هذا، كمن يطرد الذباب الطنان، وركّز اهتمامه على الكلب.

اختفى العالم كله. لم يبقَ سوى تَمْغا ودرب السمّور الذي يمشيان عليه.

انتعش الكلب، وراح يهرّ ويحرك ذيله المعقوف. كان السمّور قريباً.

-لا تفكّر بأيِّ شيء. سأساعدك في حصره وتحريكه، وما عليك إلا التسديد جيداً. تذكر تسديدك على العُلَب. بكل بساطة، لا يوجد فرق جوهري.

قال العم أشياء أخرى، ولكن ديما لم يسمعها، ولم يفهمها.

اندفع الكلب إلى الأمام.

كانت الريح تلسع الوجه بألسنة الزمهرير. الشفاه مشدودة، والعيون مزمومة، لا تشعر برجليك، ولا بيديك، لا يوجد سوى أنفاسٍ لاهثةٍ. سوى قلب من رصاص تحت القميص. قفز الزمن من موضعه، وبصريرٍ خفيفٍ تحرَّك وتلوّى. لم يتسنّ لديما أن يدرك ما يجري. وبومضاتٍ قصيرة رأى تَمْغا، وعمّه، ونفسه.

وثب السمّور على الشجرة كي يختفي عن أنظار مطارديه. ولكنه، بدلاً من أن يتوجه مباشرة إلى قمّتها، أسرع الركض على الجذع بحركة لولبية. ثم اختفى.

راح الكلب تَمْغا ينبح ويهرّ مراوحاً في مكانه. وتفحّص نيكولاي نيكولايفتش آثار الحيوان، فيما كان ديما يشدّ على البندقية بيديه، وينتظر. كان يأمل أن يكون السمّور قد تمكن من الهرب. وهل يمكن إطلاق النار، وفي الرأس تزوبع هذه العاصفة؟ يَحسُن الانتظار، والتحلي بالصبر والهدوء، ريثما يقترب سمّور آخر واضح الرؤية، هادئ الأنفاس.

- إنه هنا، دقّ العم الشجرة بعصا التزلّج.

- أين؟

سأله ديما بصوت خفيض، بالكاد كان يسمعه هو نفسه. وخيراً فعل. إذ قد لا يعجب عمَّه هذا السؤالُ الغبي.

ثم تبيّن أنه كان في جذع الشجرة تجويفٌ لاذ به السمّور واختبأ فيه. لبَدَ آملاً أن يفقد الصيادون أثره. ربما كان في التجويف عشُّه.

- هذا ليس سيّئاً. قال نيكولاي نيكولايفتش، وهو يتناول من حقيبة الظهر علبة فيها خروق. الأسوأ أن يكون قد هبط إلى الجذور. عندئذ سنحفر طويلاً.

أخرج العم قطعة من خرقة ناشفة، وتناول الفأس. دقّ بها الجذع، فوجد فيه مكاناً رقيقاً. وبعدة ضربات أحدث فجوة مسننة.

- استعدّ. قال العم.

لم يعرف ديما لأي شيء يستعدّ. لكنه، تحسّباً لكل شيء، رفع البندقية. خفَّ الاضطراب، وأدرك ديما الآن تسارع تنفسه، وبهذه القوة حتى كاد أن يختنق. وبعد أن هدأ روعُه، وقف على رجليه بثبات. ثم رمى القفاز من يده اليمنى، وكان تحته قفاز قطني رقيق، فأحسّت سَبّابته ببرودة الزناد. لقد كان جاهزاً.

أشعل نيكولاي نيكولايفتش النار في الخرقة، يُزْكيها تارة، ويخفّفها تارة أخرى. وأخيراً، تصاعد الدخان، فدفع به عبر التجويف، وأنصت. استحسن أفكاره، وانتقل إلى الجانب الآخر من الشجرة.

كان الكلب تَمْغا ينظر إلى صاحبه بصمت. فقد شاهد من قبلُ كيف كانوا يُخرجون السمّور بالدخان. وكان يعلم أن الهدوء مطلوب في هذه اللحظات.

كان ديما ينظر بثبات أوجع عينيه. فقد تعبت يداه من حمل البندقية، لكنه كان يخشى أن يخفضها ولو للحظة واحدة.

تصاعد الدخان من الشجرة. كانت مثل طنجرة يغلي ماؤها، ويخرج البخار من كل شق فيها. ودُفعةً واحدة فتح الجذعُ الأجوف كلَّ الفتحات التي كانت مسدودة فيه حتى اللحظة، فانطلق منها دخان رماديّ تشابك مع الأغصان اليابسة، واندفع غيمةً واحدة صوب قمة الشجرة.

استمتع ديما بهذا المنظر، ولكن صيحة عالية جعلته يرتعد فوراً:

- انصرِفْ!

أشار العم إلى مكان ما في الأعلى. وانهمك تَمْغا بنباح طويل. وراح يثب على الجذع، يحاول تسلّقه حتى أقرب الأغصان. ولما أدرك لاجدوى فعله، ارتدّ إلى الثلج، وواصل حركته عند أسفل الشجرة.

- انتظرْ. أمره العم. لا تطلِق قبل الآوان. دعْه يهدأ.

لم يكن ديما يفكر بإطلاق النار، فهو لم يرَ السمّور حتى الآن، ولم يلمحه إلا عندما قفز إلى أغصان شجرة التنّوب المجاورة، طلباً للخلاص من الدخان المرّ.

كان نباح الكلب عالياً إلى درجة جعلته أحياناً يتقطّع، فيغدو عواء وهريراً. اهتاج تَمْغا في مكانه، واندفع يطارد السمّور، فتبعه الصيّادان.

كان الفتى يتابع بصمتٍ وتركيزٍ كلَّ حركة من حركات السمّور الشبيهِ الظلّ بقطٍّ قاتم. وحتى أذناه دائريتان على خلفية السماءالبيضاء.

«لن تفلت منّي. أنت لي».

زال القلق، وحلَّ محله شغف الصيد. صفا الإدراك وصار عذباً. وأحس ديما أكثر من أي وقت مضى بأنه قوي وناضج. ومع هذا السمّور الفتيّ كان عليه أن يقتل طفولته ونقاط ضعفه.

«لن تُفلِت، وأنا من سأسلخ جلدك».

«أيها الحنَش الصغير!»

«لِمَ الهرب؟ استكن!».

ضحك ديما ساخراً من هذه الأفكار.

قطع الصيّادون ما لا يقل عن ثلاثمئة مترٍ في مطاردتهم السمّور. وقد تبيّن أنه كان رشيقاً. وتأكد نيكولاي نيكولايفتش منذ النظرة الأولى بأن هذا الحيوان لم يكمل عامه الأول بعد. كان ممكناً أن يطلقوه كي لا ينشغلوا به عن السمامير الأكثر قيمة، ولكن نيكولاي نيكولايفتش كان يهتم بابن أخيه. كان يعرف أنه بحاجة إلى الطريدة الأولى.

بقي أكثرُ من نصف كيلومترٍ بقليل للوصول إلى سفح جبل غولتس الصغير. الصعود إليه يبدأ من ركام حجارة. إذا وصل السمّور إلى هناك نجا. وسيغدو تدخينه صعباً. لكنّ تَمْغا سيقبض عليه قبل ذلك، فهو لن يسمح له بالجري ولو لعدة خطوات على الأرض. لكن هذا الاحتمال لا يقبله العمّ ولا ديما اللذان كانا يأملان بأن السمّور سيلتصق على الشجرة قبل ذلك، ولم يخطئا.

تعب الحيوان، ويئس. وحين بلغ جذع الشجرة الضخم قرَّر الاختباء، فالتصق بالقشرة السوداء وجمد. ظنّ أنه بهذه الطريقة لن يُرى من تحت. وبالفعل، لم يكن من السهل أن يكتشفوه. نظر ديما طويلاً إلى فوق، وكوّر عينيه.

- هل تراه؟ سأله عمّه.

- لا. ردّ ديما، وارتعد حالاً. رأيته.

كان السمّور الأسود ذو الذيل المنفوش يختبئ ظاهراً للعيان. إنه هدفٌ مثالي.

طغت موجة القلق، ولكنه كان الآن من نوع مختلف، رناناً، بطول نوتةٍ مديدة. كان حادّاً، مثل وترٍ فولاذي. وغطّى ثقلُ النبض رأسه بقلنسوة، ضاغطاً على صدغيه.

لم يتسنَّ لديما أن يحسب حركاته، فقد كان الجسد يعمل بصورة مستقلة. إنه لم يلحظ كيف رفع البندقية، وأسند كعبها إلى كتفه، وفتح غطاء التسديد، وأغمض عينه اليسرى، وحبس أنفاسه، وبإصبعه المتجمد أحسّ بمقاومة الزناد. فتذكّر أن القفاز بقي هناك، عند الشجرة الجوفاء. ولهذا السبب تجمدت يده اليمنى إلى هذا الحد. هذه الفكرة النافلة التي ليس وقتُها الآن، جعلته يصحو. لقد أدرك ديما أنه يسدد على رأس السمّور، ولم يبقَ له إلا أن يطلق النار. ولا مجال لأن يخطئ الهدف.

- هيا أطلق النار. قال نيكولاي نيكولايفتش وهو يكزّ على أسنانه.

كان واقفاً بجانب ديما، يسدِّد أيضاً.

دقات قلب ديما طويلة مكتومة. أنفاسه تتقطّع.

لا يجوز الإبطاء.

ضغط ديما على الزناد. ولكنه قبل ذلك بأجزاء من الثانية أزاح شُعيرة التسديد إلى اليسار.

دوّت الطلقة. فانتفض السمّور. وراح يجري إلى أعلى الشجرة.

أخطأ الهدف. ديما أخطأ الهدف...

دوّت طلقة ثانية. دعم العمُّ ابنَ أخيه. وفي الحال انفصل السمّور عن قشر الشجرة وهوى إلى الأسفل. راح يصطدم بالأغصان، ويتقلّب، ثم سقط على الثلج.

- فو! صرخ نيكولاي نيكولايفتش بالكلب تَمْغا الذي ركض واقترب منه. فو، لمن أقول!

وقف ديما صامتاً. كادت البندقية تسقط من يده. لقد أدرك أنه أخطأ الهدف قصداً. وعبثاً حاول إقناع نفسه بأن السبب هو أن يده ارتجفت. هو مَن أفسد كل شيء. أبعد الطلقة عن الهدف. ولكن لماذا؟ وانهمرت دموعه نتيجة انزعاجه واحتقار نفسه. «ولماذا؟!» ردَّد ديما بإلحاح، ولم يجد جواباً.

لو كان ساشكا لأصاب الهدف. ولَما ساوره الشك. «Headshot!» وصرخة الفرح. وبسمة صياد حقيقي. والطريدة الأولى في اليد.

دعا العم ديما إليه.

- أنت أخرَق. يمكن إصابة هدف كهذا والعينان مغمضتان، أما أنت فعملت مسخرة.

«هو لا يعلم بعدُ أني فعلت ذلك قصداً! طبعاً، لا يعرف. يظن أني بكل بساطة أخطأت الهدف. توتّرت أعصابي ولم أُصِبِ الهدف. حسناً، دعْه يعتقد هكذا».

- قلت لك أن تتعلم الرماية على القطط. لا جدوى من الكلام. انسَ. والآن انظر إليّ. تعلّمْ.

كانت بقع الدم متناثرة على الثلج. والسمّور مستلقٍ، يرتعش كله. يحرك فكَّيه كأنه يبلع، فقد ابتلع الهواء ولم يشبع منه. كانت عيناه عكِرتين. تجمد فيهما الخوف قشرةً رقيقة ساطعة. لقد رأى الناسَ الذين اصطادوه، فحرّك أرجله ولم يستطع الهرب. قبل قليل كـان يختبئ آمناً، وها هو الآن مستلقٍ هنا، يموت. راح العم يقلّبه مثل قطعة لحم في حانوت، يخمّن ثمن فرائه. والسمّور يقاوم بآخر ما تبقى لديه من قوة. ولما تجمّدت قوائمه واصل تحريك فكيه بلا جدوى.

كان الكلب يدور ويتشمَّم رائحته. والعم يدفعه بمرفقَيه ويواصل تفحص السمّور. لقد اخترقت الطلقة رقبته. وسال منها دمٌ كثير، فلم يكن العم راضياً.

لم يستطع الفتى التخلّص من اليأس وفقدان الأمل في عينَي السمّور. فلم يبق هناك أفكار ولا مشاعر. وانقلب كل ذلك فراغاً أبيض. تمنّى لو يتجمّد كل شيء. أن يقف هنا ساعة بعد ساعة وهو ينظر إلى هاتين العينين، ويلتقط كل خلجة فـي عضلاته، وكل حركة برأسه الصغير الملطّخ بالدم. أن يقترب من السمّور ويسمع أنفاسه الخافتة، أن يحس كيف يبرد دمُه الساخن على يديه.

سرى بردٌ على وجنتيه. أدرك ديما أنه يبكي. «ليت عمّي لا ينتبه».

- هل ترى كم من الدم؟ شيء سيّئ. فقد لطّخ الجلد كله، وسيكون تنظيفه منهِكاً. سينضح قفا الجلد بالدم.

تناول نيكولاي نيكولايفتش سكيناً، ومرة أخرى نهر الكلب قائلاً «فو!»، وأردف:

- خير لنا أن نرطِّبه حالاً، لأن الفراء هزيل أصلاً. فانتبهْ. وتعلّمِ الشغل الصحيح.

قلبَ العمُّ جلد السمّور، وحاول وضعه على ركبتيه، ولكنه خشيَ من أن يلوث بنطلونه. وأخيراً ألقاه على الثلج.

- تقطعُ الذيل. هكذا. وبأناةٍ تسحب فقراته.

«ما يزال حياً!».

أحسّ ديما بتيار جليدي يخنقه. وتناثرت آلاف ندف الثلج الحادة على جبينه. ومثل أسمال زرقاء ممزقة انطلقت من حلقه كلمات غير صادقة:

- إنه ما يزال حياً.

- لا ا - ا - ا، - ردَّ العم. مَنْ فيه هذا الثقب لا يعيش.

تجمَّد ديما مثل صخرةٍ من جليد. بلاشعور، ولا إرادة. راح ينظر.

- والآن تَقطع قوائمه. هكذا. يجب أن تبقى المخالب على الجلد. هكذا... هل ترى؟ حسناً. تسحب الأرجل، والآن تسحب الجلد. يمكن أن تعلِّقه من رجليه بمسمار على الشجرة، وتسحب الجلد باليدين. بل وهذه الطريقة أسهل.

كان ديما يكزّ على أسنانه، منكمشاً بألمِ جمّده، وهو يشاهد كيف يخرج ويتجرّد من الفراء الجميل مسخ دميم. هزيل. مشوّه.

سحب العم قوائم السمّور، ثم انتزع جلده، مثلما كان ديما يخلع كنزته الرياضية أو قميصه الداخليَّ، مع فارق وحيد هو أن على العم أن يستخدم كل قوة يديه.

في أعقاب التجمّد حلّت اللامبالاة العمياء. فقد ضاع ديما نهائياً في متاهة مشاعره. لم يكن قـادراً، ولا راغباً فـي فك الخيوط المتشابكة، أو تسميتها وتفسيرها. فاكتفى بالمشاهدة. هو نفسه كان مقلوباً عاليه سافلُه، ممضوغاً، وملطخاً بالدم. كان البرد يحرق أصابع يده اليمنى. وبات للبندقية بين يديه ثقلٌ لا يفسَّر. فانصرف الآن تركيزه كلّه على منع البندقية من السقوط في الثلج. لم يبق من أفكاره إلا واحدة، هي: «إذا دخل الثلج في فوهة البندقية فإن عمّي سيؤنِّبني».

«سيؤنِّبني».

«تمسّك بالبندقية».

«“Headshot!” وصرخة سارَّة».

«آه، يا له من تطهير للروح!».

- هنا ينبغي أن يكون المرء أكثر حذراً. انتبهْ. تقطع غضاريف الأذنين. هكذا.

«غضاريف الأذنين». ردّد ديما.

- تسحب. والآن تقطع أعصاب العينين.

«أعصاب العينين».

- وأخيراً، تقطع غضروف الأنف.

«تقطع غضروف الأنف».

- بكل بساطة.

«بكل بساطة».

سلخ العم الجلد كله، وبعناية سوّى فروه. ثم ألقى الجثة العارية على الثلج. لم يعد محتاجاً إليها. قطعة لحم. لكن السمّور ما زال يتحرك. يكشف فكّاه المفتوحان قليلاً عن أسنان مكشّرة، عارية. تدبّ خلجة في قائمتيه الأماميتين. عيناه جاحظتان عكِرتان.

«ما زال حياً».

آخر لحظات الإدراك. لقد حرق الألم أحاسيس السمّور. صار جسده كلّه ألماً.

أدخل العم حبلاً في الجلد، عبْر فتحتَي العينين، وربطه بحقيبة الظهر. لم يتوقّف ديما عن النظر إلى الحيوان. إلى عينيه العاريتين، الداميتين، المعفّرتين بالثّلج.

رأى نيكولاي نيكولايفتش حال ابن أخيه، وظنّ أنها ليست سوى خيبة ناتجة عن فشله بإصابة السمّور. ورغبةً منه بتشجيعه، طبطب على ظهره:

- لماذا كلّ هذا الزعل؟ الجميع يخطئون الهدف ذات مرّة. وهذا في عمرك ليس بعارٍ كبير. ثم أردف بعد صمتٍ قصير: رغم أني لم أخطئ الهدف يوماً. وكانت بندقيّتي من دون شُعيرة تسديد.

ابتسم العم. كان راغباً في أن يقول لديما كلمة طيّبة، تساعده بطريقة ما، لكنه لم يعرف كيف.

- هذا كل شيء. فلنتابع. فقد تعوِّض خسارتك إن كنت محظوظاً. ما تزال الشمس عالية.

الفصل السابع



عاد الصيّادون إلى البيت الشتوي، فوجدوا أن الغُراب الأسحم قد نقر ما شاء من اللحم المعلق في الهواء. وضعوا حِملهم عند الباب، وتفحّصوا محتارين ما خلّفه منقاره من آثار.

- مرة أخرى سرق قطعة لحم كاملة. شقّ فيتيا الباب. ما حاجته إلى كل هذا اللحم؟ هل يفعل ذلك نكاية بنا؟

راح نيكولاي نيكولايفتش يشتم، وسارع إلى البيت نحو الموقد. «يا لهم من صيّادين. قال في سرّه. لا يستطيعون قتل طائر. شيء سخيف. لا مثيل لهذا من قبلُ أبداً». لم يبُحْ بأفكاره، طبعاً، وعموماً كان قليل الكلام هذا المساء.

كان ابن أخيه صامتاً أيضاً. بدا ضائعاً، وتعِباً بلا حدود. وكأنه كان يجري خلف السمّور طول النهار، هو والكلب.

بعد العشاء استلقى فيتيا على السرير، وراح ينقر بأصابعه على الفراش، وبطرف عينه ينظر إلى نيكولاي نيكولايفتش. نادراً ما كان فيتيا يتعاطى الشراب، حتى وهو في المدينة، وقد مُنِع اصطحاب المشروبات الكحولية إلى الصيد نهائياً. «وعبثاً فعل. لو كانت موجودة هنا قنينة أو اثنتان... لَما تضرر أحد. أمّا الآن، فلا يبقى لنا سوى الضجر». فكر فيتيا وهو يحك عنقه. تنهّد، وخاطب أرتيوميتش:

- هل تسمع؟ ألم يخطر لك أبداً أن عندنا كل عام شتاءَين، وكل يومٍ ليلتَين؟

- ماذا؟ تجهم أرتيوميتش.

- انظر. ابتسم فيتيا. العام يبدأ يوم الأول من يناير.

- وماذا بعد؟

- الشتاء عندنا يبدأ من ديسمبر حتى فبراير. صحيح؟ هذا يعنـي أن السنة تبدأ من شهرين في الشتاء، ثم من الربيع، والصيف والخريف، ثم مرة أخرى الشتاء، باقٍ منه الآن شهرٌ واحد فقط. وكذلك الأمر في اليوم. يبدأ النهار في الساعة الثانية عشرة... ليلاً! أي أن الليل يبدأ أولاً، ثم وفي نحو الساعة الرابعة أو الخامسة يأتي الفجر، ثم يحل الصباح، وبعدئذ يتوالى النهار، فالمساء، وفي نحو الساعة العاشرة، أو الحادية عشرة يحل الليل من جديد!

- ما هذا، هل اصطدم رأسك بشيء؟ قهقه أرتيوميتش.

- ولكن هل أنت موافق على أن الأمر كذلك؟

- لا أدري. ولكني أعتقد بأن الليل واحد، والشتاء واحد.

- طيّب، الله معك.

- هل تظن أن الفزاعة تفيد؟ توجّه أرتيوميتش إلى نيكولاي نيكولايفتش.

لم يردّ عليه.

نظر أرتيوميتش من النافذة إلى جثة الطائر التي يصعب رؤيتها في الظلام. حين كان نيكولاي نيكولايفتش عائداً إلى البيت الشتوي اليوم، رأى غراباً أسودَ على غصنٍ عالٍ، يميل برأسه وينظر إلى المارّة الغرباء تحته. رفع نيكولاي نيكولايفتش البندقية. فخطر لديما الذي كان يسير خلفه، أن يحرك الغصن عمْداً كي يحذِّر الطائر، إلّا أنه لم يُفلِح في ذلك. فقد كان يتألم كثيراً، مصدوماً بأن خطأه في التسديد هو ما أدّى إلى سلخ السمّور حيّاً. دوّت طلقة، وقبل أن يخمد صداها سقط الطائر على الكثبان الثلجية. وجرى الكلب تَمْغا نحوه، وراح ينبح. مدَّ العمّ يده، ورفع الغُراب الأسحم الملطّخ بالدم من جناحه.

- هل هو غرابنا؟ سأله، وأجاب حالاً: - لا، ذاك أكبر حجماً، أما هذا فلم يزل صغيراً.

علّقوه على حبل لِبَثِّ الخوف والرعب.

كان ديما ينقِّل ناظريه بين الموقد والمصباح، وأحياناً تضيع نظرته تماماً شاردة بسبب قِصَر نظره. كان يفكر بالغُراب الأسحم. يتذكر نقاط ضعفه في الصيد، وجثة السمّور الملطخة بالدماء. ثم غرق بأفكاره عن المدرسة ووالديه.

ألحّت عليه الرغبة بالنهوض من فراشه غداً. ليجهز محفظته، ويلتقي مع زملائه في الصف، ويختبئ خلف الكتاب المدرسي من شكاوى المعلم، ويبتسم لنوادر ساشكا الغبية. وأن يرى كريستينا. كانت تجلس بجوار النافذة، على المقعد الثاني، مع صديقتها أوليا زَمانوفسكايا. لكل منهما غرة شقراء قصيرة، وجديلتان طويلتان، معقودتان بشريطة، ونوع واحدٌ من الأساور الفيروزية الباقية من معسكر العام الماضي. وكان ديما أيضاً هناك. يومها رقص مع كريستينا أول مرة. والحقيقة، لم يرقص، بالأحرى كان يراوح في مكانه خائفاً أن تفوح رائحة عرَقه بعد لعبِ كرة القدم في الصباح. واستحى من حذائه الرياضي البالي، وخطر له للمرة الأولى بأيِّ غباء يبدو في قميص فرقة الغناء Metallica، ومنذ ذلك الحين لم يعد يرتديه أبداً. أما كريستينا فكانت ترتدي فستان سارافان، لونه بيج. أصابعها رقيقة شاحبة، وعلى أظافر قدميها طلاء محكوك أسوَد. كانت طويلة القامة، نحيفة. تفوح منها رائحة برتقال.

أغمض ديما عينيه، ورأى كيف تبتسم كريستينا. وكيف تنزلق على جيدها بقعٌ باردة من أضواء الموسيقى الملوّنة. دقّق النظر في حذائها الصيفي الذي كان يظهر تارة ويختفي تارة أخرى تحت تنورة السارافان، ثم رفع نظرته وترنّح، فقد كان على رأس كريستينا قبعة شتوية من قِطع فراء السمّور، محبوكة جيداً. ضحكت الفتاة مسرورة بهذه الهدية. قالت شيئاً لم يسمعه. فارتبك ديما، ولم يعرف كيف يتصرف، ثم لاحظ خيوط دم كثيف تسيل من تحت القبعة. تلطِّخ جبين كريستينا، وخصلات غرتها الشقراء. كان الدم يسيل بمحاذاة أنفها ويتجمع في زوايا شفتيها، ويصبغ أسنانها بلون أسوَد، فقد ظلّت تبتسم، غافلة عمّا يجري. ومدَّ ديما يده ليرمي عن رأس كريستينا قبّعتها التي تنزف دماً، فذُعر واستيقظ.

مجرّد حلم. ولم يلحظ كيف غفا.

«ضعيف. همس ديما لنفسه. أنا ضعيف!».

نهض ديما من السرير وهو يأمل أن يصحو، واقترب من جلود السمّور المنشورة على الحبل. مسّد الفراء. «ها هي طريدة الرجل الحقيقي». لم يشعر بغير النفور. أحسَّ، وهو يائس، عميقُ الحقد على نفسه، بأنه سينفجر بالبكاء ثانية، فعاد مسرعاً إلى السرير. استلقى ووجهُه إلى الجدار، وتظاهر بالنوم. لم يفكر أحد بأن يمسَّه.

طابت الثرثرة لأرتيوميتش وفيتيا هذا المساء. كان ذلك إنقاذاً للفتى، فأبعد عنه أفكاره الواضحة، وأصغى إلى حديثهما وهو يستريح. وانصرف نيكولاي نيكولايفتش نفسه عن تجهّمه بابتسامة ساخرة.

- أقول لك. قال فيتيا وهو ينكش أسنانه. بل والثعالب أكثر ذكاءً. فحين تكثر البراغيث على جلدها، لا تفعل كالقرود التي تفلّي بعضها بعضاً.

- يعني؟ حك أرتيوميتش ندبة على رأسه، كأنها حديثة عهد وآلمتْه.

- حينها ينتف الثعلب من شعره كُرةً، أو يقتلع بأسنانه قطعة طحلبٍ، يضعها في فمه وينزل إلى النهر ووجهُه إلى البر. يدخل الماء ببطء، ويمشي متراجعاً إلى الوراء، خطوة تلو الخطوة.

- ثمّ ماذا؟ حثّه أرتيوميتش.

- البراغيث تخشى الماء، فتسرع كلّها صاعدة شيئاً فشيئاً باتجاه رأسه، طلباً للنجاة.

- كذبٌ. قال أرتيوميتش ساخراً.

- يتابع الثعلب تراجعه البطيء في النهر على مهلٍ، إلى أن يغمره الماء، فلا يبقى ظاهراً منه إلا الجزء الأمامي من رأسه. ينتظر الثعلب قليلاً، ريثما تجتمع البراغيث كلها في كرة الشعر أو الطحلب، ثم يلقيها وهي في سفينتها الصغيرة، ويغطس عائداً إلى البر نظيفاً، ينفض عن جسمه الماء.

زمّ أرتيوميتش عينيه، ومال يكاد يختنق بالحازوق.

- ماذا؟ سأله فيتيا منزعجاً.

- يا لك من كذّاب! ضحك أرتيوميتش بصوت مسموع، لم يتمالك نفسه.

- أقول لك!

- طيّب نعم، نعم.

- لقد عرضوا هذا المشهد في التلفزيون!

- ما عليك إلا أن تشاهد مزيداً من هذا الهراء! البراغيث عندك تسبح في سفينة...

شدّ ديما قَبضته. فقد ازداد استياؤه من نفسه. «أليس أنت من كنتَ تحلم بهذا؟ ها هي سنّ النضج. استماعٌ في المساء، بعد الصيد، إلى حكايات الصيّادين في بيتٍ شتوي ضيق. ضحكٌ. تمسيدٌ على فراء الطرائد. مضمّخٌ برائحة التايغا. بالصقيع. لكان الجميع حسدوك، أما أنت...» دسّ الفتى رأسه في المخدة كمن يستطيع أن يعصر ما في نفسه من أفكار ومشاعر عديمة الجدوى، مثلما يعصرون من الإسفنجة الماء. عبثاً. وراودته أفكار نافلة، مشتتة. وهذا ما زاد الوضع سوءاً.

تصوغها وتنساها. تتسكع، تتردد، كأنك ارتديت كل ثيابك بالمقلوب، ينادونك باسمٍ غير اسمك، وألقوا بك في حياة غريبة.

عندما عاد ديما يستمع إلى الصيّادين ثانية. كان أرتيوميتش يقول:

- دماغ الدب مثل دماغ الدجاجة. إنه أقوى وأسرع، أما أنت، فمهما كان، يظل دماغك أكبر، حتى لو كنت أحمق.

- لا أعرف. قال فيتيا بصوتٍ ممدود.

- استمعْ عندما يتكلمون، وستعرف.

- أستمع إليك أنت؟

- طيّب، استمع إلى تَمْغا. إنه محدِّثٌ يليق بك.

- يا له من محدِّث.

ضحك الصيادون، وانتعش الكلب عندما نطقوا اسمه. رفع رأسه عن أماميّتيه، وحين تأكد أنه ليس موضعَ اهتمام أحد، غمغم بهرير كلاب، وعاد إلى نومه دافئاً، شبعان.

- وهكذا. يمكن التخلص من الدب بسبب غبائه. بل ومن دون إطلاق نار. إني متأكد مما أقول لك! تبحث عن دربه الأقرب إلى الجرف، وتنصب له أنشوطة.

- أي أنشوطة؟ تثاءب فيتيا.

- أيّ، أيّ...أنشوطة بسيطة! تنعقد على رجله. شرط أن تكون متينة. ثم اربطها بخشبة كبيرة.

- بأي خشبة؟

- تبّاً لك! غضب أرتيوميتش. بخشبة في الغابة، بأي خشبة! ألم تر أخشاباً؟ هدأ الصياد حالاً، وعاد يتكلم على مهل: تُقيِّد الأنشوطةُ الدبّ. يمشي فلا يستطيع. تمنعه الخشبة، فيغضب. يجأر، يقرقع بمخالبه، يراوح في مكانه. لا يفقه شيئاً. ثم يرى أن الخشبة هي السبب. فيشرع بتحطيمها. يخرج عن طوره. يجن جنونه، فيحمل الخشبة ويمضي بها إلى الجرف. يمزقها، يخدشها، وأخيراً يلقي بها في الجرف.

- يُلقي من؟

- بالخشبة، بمن! هل تفهم؟ لكن الأنشوطة في مكانها! حبلُها يجرّ الدبَّ ويطير به خلفها. يتحطم على الصخور.

ساد السكون بعد هذه الكلمات. صمت الجميع. مرة أخرى ترامى همس الريح من وراء الشبّاك. فتح تَمْغا عينيه قليلاً كي ينظر إلى السكون. مسح فيتيا جبينه بيده. بلع ريقه. ثم انهار بضحكة حمارٍ متقطعةٍ. وقهقه بجميع جسمه حتى انهمرت دموعه، من عينيه، وسقط عن المقعد صحن. لم يكن ديما يعلم أن فيتيا قادر على هذا الضحك. حرّك تَمْغا فكّيه، وتكوّر لينام.

- ما لك؟ ما لك؟ لماذا تصهل؟ رمقه أرتيوميتش باستخفاف. ذكيّ، ما شاء الله.

- وإذا به يسقط في الهاوية؟ بصعوبة نطق فيتيا بصوت مرتفع وهو يضحك.

- قد لا يكون الأمر هكذا على الدوام. لكن ذلك حدث مرَّتين.

- صحيح...

- أراهنك على سنّي[14]، لقد حدث!

- حتى ولو على اثنَين! ما حاجتي إلى أسنانك العفنة؟ عندي ما يكفيني.

حتى نيكولاي نيكولايفتش الذي كان يفرز الطلقات، ضحك بسرور.

- إذا كنت ستضحك على هذا النحو، فإنك ستخسر حتى هذه الأسنان. هل سيطول بنا الوقوع في مطباتك، يا تُرى؟

- حاولْ. كشر فيتيا عن أسنانه، إلا أنه قلّل الضحك. لقد اكتفى الآن بضحك خفيف وراح يمسح عينيه بكمِّه.

- واضح أن الحيوانات ليست كلها غبية. واصل أرتيوميتش جاداً، وهو يقف بجوار الموقد، يرشف بقايا الشاي. هناك حيوانات ذكية. خذ الذئب مثلاً.

- هذا صحيح. أومأ فيتيا.

- إنه يحتال على الصياد فوراً. عندما يشاهد الكلب يعدو أمام الصياد، يكشف نفسه له ويزحف بمؤخرته على الأرض. ينشج ويطوي ذنبه وأذنيه. يرى الكلب أن الذئب جريح. يظن أن القضاء عليه سهل. وإن رآه الصياد فلا يقلق. والكلب قوي وسليم البنية. قُدِّم له الطعام، وحظيَ بالعناية اللازمة منذ الصباح. والآن، أمامه ذئب يعرج، والصياد يحثّ الكلب على مطاردته. يهرب الذئب ليختبئ خلف شجيرات ملتفّة، وإذا بالعرج يزول. ينتصب شَعره ويكشِّر عن أنيابه. كان جريحاً،

وبات بكامل قوّته. بل وظهر من وراء الشجيرات ذئبان آخران أكبر حجماً. كان هناك كلب، ولم يعُد له من أثر. وانتهى الصيد كلّه.

- هذا صحيح. أومأ فيتيا برأسه.

- ذئابٌ ذكية، نذلة. لا يشغل بالها إلا شيء واحد هو خداع الإنسان.

ظلّ فيتيا وأرتيوميتش يتسلّيان بالحكايات، يتجادلان ويضحكان، أما ديما فقد أغمض عينيه وعاد إلى أفكاره. كانت أفكاراً غريبة لم يعرفها من قبل.

«الذئاب، والثعالب حيوانات ذكية. فهل الغُراب الأسحم ذكيٌّ أيضاً؟ بماذا يشعر؟ كيف يرى العالم؟ هل حقاً هو يفكر ويفهم بعض الأشياء؟ هل يستطيع الإنسان أن يكون ظالماً، وهو يعرف حقَّ المعرفة أن ما يفعله هو الظلم؟ أم أنه لا يعرف؟ تقول أمي إنه لا يتعذّب حقاً إلا من يدرك ألمه. ولكن ما معنى ذلك؟ كيف نحدّد ما يحس به الكائن الحي ويدركه؟ إذا لم يكن بوسع الذبابة أو الجرذ الإحساس بالألم، فقتلهما ليس ظلماً. أم لا؟ وماذا عن السمّور؟ والغُراب الأسحم؟

تنفّس الفتى الصعداء حائراً».

«لا يجوز سلب الحياة من كائن عاقل، إذ يا له من حظّ سعيد أن تولَد. أن تشعر، وأن تفكِّر. لا يجوز لنزوةٍ حرمانُ أحد من هذا الحظ، فالقتيل لن يعود إلى الحياة أبداً...»

خُيِّل لديما أن هذا بالضبط ما كانت تقوله أمه، ولكن قد تكون هذه أفكاره هو. هذا ما لم يكن متأكداً منه. بل وهل تفهم أمُّه كثيراً وهي تتعامل مع فئرانها الخلايا B؟ وهل يمكن لأحدٍ أن يحب الحيوانات، وأن يجرب في الوقت نفسه لقاحاتِ المناعة للإنسان بحُقَنٍ يغرسها إبراً في عيون تلك الحيوانات، وأن يقتلها ويشويها ويأكلها؟ «ولمَ لا؟ بعضها يؤكل، وبعضها يُحَبّ...».

تمنى لو يتكلم مع أحد. فوراً. الآن. ولكن لم يكن هناك أحد يتكلم معه. وهيهات أن يرغب أحد من الصيّادين بمناقشة هذه الأشياء. لكان وجد عندهم أجوبة، ولكن حتماً ليس على أسئلته.

تنهّد ديما ثانية. كان يشعر بالوحدة. ولكنّ عذاباته سكنت. وأحس أن بوسعه الآن أن ينام. «وغَداً سنرى ما العمل».

سرعان ما أنهى نيكولاي نيكولايفتش حديث الصيادين، وأطفأ السراج، وقال إن فيتيا سيعود غداً إلى مراقبة الغُراب الأسحم من جديد.

- وما الجدوى من ذلك؟ سأله أرتيوميتش.

لم يرد العم.

- هل تعتقد أنه سيأتي؟ سأله فيتيا.

- سيأتي. ردّ نيكولاي نيكولايفتش. ما عليك هذه المرة إلا أن تجلس صامتاً، من دون أصوات. لا تمشِ في البيت. ولا تشعل الموقد، وهذا هو الأهم. ثم أردف بعد صمت قصير: - وعموماً، يجب عليك أن تختبئ كما ينبغي، وعند ذلك سيأتي.

استاء أرتيوميتش، ولكنه صمت.

- كن أكثر ذكاءً. واصل العم كلامه. لا تتمشَّ أمام النافذة. لعلّه يراقب البيت. فإذا رأى أحداً في الداخل، لن يأتي.

وفاجأ ديما نفسَه، وهو يسأل بصوت خفيض:

- ربما نتركه؟

- نترك مَن؟

- الغُراب الأسحم. نتركه بسلام. دعه يطير.

- ولماذا؟

- أظن... لعلّه ليس... يمكن القول بأنه ليس غريباً هنا. دعه ينقر، لماذا نقتله؟

- طبعاً. ضحك نيكولاي نيكولايفتش.

- فهو ...

- ليس غريباً. نحن وهو أصحاب هذا المكان. الأذكى بيننا هو الأفضل.

- لماذا...

- هيا إلى النوم. عندما تصل إلى شيء أذكى، تتكلم.

الفصل الثامن



كانت السماء في الليل صافيةً، مرصّعةً بالنجوم. فقد انخفضت درجة الحرارة بشدة، وأشرقت الشمس حمراء قانية.

كان الصيّادون يستعدون للخروج. وكان نيكولاي نيكولايفتش يطبخ الحنطة السوداء، وأرتيوميتش يتفقد الفِخاخ بكسل. أما فيتيا فكان يحلق ذقنه، يمر بماكينة الحلاقة على الجلد، ثم يضعها في فنجان كبير، ويحدق في مرآة صغيرة متسخة الأطراف.

ناقش الصيّادون مرة أخرى كيف يجب على فيتيا أن يجلس بهدوء كامل، وكيف يترقب الغُراب الأسحم ويطلـق عليه النار. كانوا يتكلمـون وهم يبتسمون. وكانت المواجهة مع الطائر تسليةً للجميع عند يقظة الصباح. لم يكن نيكولاي نيكولايفتش يطيق صبراً وهو ينتظر أن يرى الغُراب الأسحم خامد الأنفاس. وانتعش ديما أيضاً. فقد أزالت استراحة الليل كآبته، مثلما تغسل صودا الطعام الصدأ قبل أن يتلف أقواس الفِخاخ المعدنية. كان يستعد ليوم جديد، آملاً أن ينتهي به إلى أفكار ممتعة. لم يزعجه إلا أن عمَّه أرسله مع أرتيوميتش لتفقد الفِخاخ.

خرج فيتيا بعد تناول طعام الفطور ليدخِّن. ثم رجع مسرعاً وسيجارته مشتعلة، فخطف بندقيته المهيّأة لقتل الغُراب الأسحم، وخرج بها راكضاً.

- إلى أين؟ صرخ أرتيوميتش.

لم يسمع جواباً، فشتم ومضى في إثر الصياد.

وما هي إلا لمحة بصر حتّى دوّت طلقة. وقفز تَمْغا عن الأرض.

عاد أرتيوميتش.

- على من أطلقت؟ سأله نيكولاي نيكولايفتش.

- على ثعلب. وأخطأت الهدف.

- أحمق. قال العم. عبثاً أطلق النار...

لم يشرح فيتيا سبب فشله، بل ولم يسأله أحد عن ذلك.

بالأمس كان يحكي عن ذكاء الثعالب، والآن يركض ليطلق عليها النار، - فكَّر ديما. فلماذا؟»

تجهّم، وأسرع متجاهلاً هذا السؤال. لقد ارتفع به مذاق مزاجه مساء الأمسِ حتى السماء. أراد أن يبصق.

قبل الخروج أخمدوا المدفأة. خلعوا الزجاج. وألصقوا السرير بالجدار تحت النافذة، ليستطيع فيتيا أن يراقب وهو مستلقٍ.

- حذارِ أن تغفو، - تضاحك أرتيوميتش.

- من يغفو هنا من دون زجاج!

كان النهار بارداً وبلا ثلج.

ابتسم الفتى وهو يشعر بالصقيع يلسع شفتيه والأنف، ويسري في خدّيه. وبلّل بخارُ أنفاسِه وجهَه فراقه ذلك. وكانت عيناه تغدوان زجاجيتين عندما تهب عليهما نفحات الزمهرير. وامتلأ صدره بأنفاس كريستالية، وتمنّى أن يستنشق الهواء بمزيد من العمق، حتى دوار الرأس، حتى ارتخاء اليدين.

كان يشعر بالراحة في ثيابه الدافئة. لقد صار جسدُه بيتَه المريح الذي أطلّ الفتى من نافذته ليستنشق برودة التايغا. لم يسبق لديما أن شعر بهذه الحرية، واعتزالِ العالم، فالعزلة هنا، في الغابة الشتوية، لم تكن تخيفه، وبدت له شيئاً طبيعياً.

كانت الغابة خالية، كما من قبلُ: ليس فيها طيور، ولا وحوش. مرة واحدة ترامت إلى سمع ديما من بعيد آهاتٌ عالية، ثقيلة، تشبه آهات عجوز عملاقة أعياها المشـي على هضاب السفح. تغدو آهاتها الرتيبة الإيقاع توجعاتٍ أكثر تردّداً، لتصبح أخيراً خليطاً من أصواتٍ غامضة. قال أرتيوميتش إنه أيّلٌ يهذي.

- قد لا يكون بمفرده.

بعد هذه الكلمات سارا صامتَين، لا يعكر السكينة إلا صرير الثلج تحت زلاجاتهما.

كان ديما يتلفَّت حوله، وفجأة تذكر صورة من كتاب قرأه ذات يوم. لم يعد يذكر عنوان الكتاب ولا اسم مؤلفه. لعل أمّه كانت تقرأ له ذلك الكتاب. يومها بدت الصورة نفسها غبية، وها هي تخرج الآن من ضباب النسيان. لقد كتب المؤلف أن جذوع الأشجار وما عليها من أغصان ما هي إلا ذيول تتدلّى فوق الأرض. أما الأشجار نفسها فهي جذور جبارة لا تراها عيوننا. تعيش الأشجار في الأعماق، وهي لا تكشف عن جسدها المتعدد الأيدي إلا عندما تسقط مقلوبة.

توقف ديما مصعوقاً، كيف غيّرت هذه الصورة التايغا. كأن أحداً أزاح ستارة النافذة في الصباح، وبدلاً من الجدار العادي لبيت الجيران، رأى ودياناً ريّانة من النباتات المتنوعة، ومساحات خصبة تشقّها أنهار فضية. وسرعان ما صارت الغابة مأهولة.

تابع ديما التزلـج خلف أرتيوميتش، وهو يـرى الآن كل شجرة وحشاً. فهذا له ذيل منقوش من أشجار التنّوب، وذاك له ذيل من أشجار الصنوبر المتغيرة اللـون، وآخرُ ذيلُه الأبترُ صغيرٌ، رماديّ من شجر الزيزفـون. وكلها يغطيها الثلج، تتمايل فـي الهواء، كلها وحوشٌ حيّة. تُمضـي شتاءها تحت الأرض فـي سكينة أبدية، وتؤوي حيوانـات أصغر، كفأر الحقل، والسـنجاب، والسمّور. وانتعشـت الأرض نفسُـها بألـفٍ مـن جحـور الحيوانات، وأوكارها، ومساربها الجانبية. كانت الغابة نائمة، تنام معها طيورها، وحشراتها، والنباتات. أدخلت هذه الفكرةُ السكينةَ إلى نفس ديما، ولأوّل مرّة بدت له التايغا مطَمْئنةً مثل البيت الشتوي. لقد كانت بيتاً أيضاً. وإن لم تكن كبيرة جداً، بالمقارنة مع هذه الأمداء الرحيبة في الفضاء المحيط.

«هذا البيت الدافئ، المريح كوكبٌ، جال فـي خاطـر الفتى. بزوايـاه القذرة، وسقفه الذي يتسرّب منه الماء، والشقوق التي في أرضه. ولكنه مع ذلك بيت. وحيد. ولا ثانـيَ له».

- انظر! دعا أرتيوميتش إليه ديما.

فقد عثر الصياد على درب للسناجب.

-الجو بارد الآن، والسنجاب لابِدٌ في عشّه. يسهل اصطياده هناك. يا له من أحمق. ضحك الصياد ساخراً. بل ولا تحتاج إلى كلب.

- وما حاجتنا إلى السنجاب؟

- ليعدو في العجلة!

ضحك أرتيوميتش لهذه النكتة التي قالها، وأردف جادّاً:

- فراؤه جيّدٍ أيضاً. ألم ترَ قبّعات من فروِ السنجاب؟

ارتجف ديما، إذ تذكّر القبّعة التي كانت تسيل دماً على رأس كريستينا.

- إنه أرخص من فرو السنوّر، ولكن لا بأس. ما توفِّره ربحٌ لك. فلنذهب. وهل تحمل هذه البندقية عبثاً؟

تحدث أرتيوميتش إلى ديما عن الآثار همساً، وكأن السنجاب على مقربة منه، وقد يخاف من كلماته. كان هذا الصياد يعرف الغابة معرفة جيدة، وبسهولة يقرأ حياتها بواسطة أدق العلامات.

- لقد شبع طائر القرزبيل نبشاً هنا. فأسقط الكثير من أكواز الصنوبر، وهي الآن حامضة، ترقد تحت الثلج. تلتقطها السناجب وتأكلها. وهذا لصالحنا. هل ترى؟ هناك أثر متشابك ويمضي في اتجاه واحد. هذا يعني أن الدرب لا يؤدي إلى العش، بل إلى الطعام. ألا ترى؟

أومأ ديما موافقاً.

- الآثار متعرجة، لأنّه كان يبحث عن أكواز الصنوبر. يقفز هنا وهناك. فهنا نبش الثلج. والحفرة صغيرة لم يعثر فيها على شيء. ثم تابع طريقه. وهنا، انظرْ، حَفَرَ حتى الأرض. فقد نبش الثلج ثم راح يركض نحو الشجرة. هذا يعني أنه عثر على كوز صنوبر، ثم تسلق الشجرة ليقشِّره. أحمقُ الحمقى، فهو لن يأكله في مكان مكشوف.

طاف أرتيوميتش حول الشجرة على مهلٍ، ثم توقف ونادى ديما.

- هل ترى ما أكثر ما أسقطه من أشياء مختلفة؟ هذا يعني أنه جلس هناك. أشار الصياد إلى شجرة الصنوبر. وإذا ما بحثنا سنعثر على آثار العودة. فقد كسر الكوز، ثم تركه على الغصن وهبط. ومرة أخرى مضى بخطوات متعرجة إلى مكان ما.

- شيء طريف. همس ديما.

- طبعاً! تضاحك أرتيوميتش. طيّب، لقد انتهى درس علم النبات. نستطيع أن نضيع النهار كله ونحن ننظر ماذا فعل هذا، وأين قضى حاجته ذاك. حان وقت العمل. لسنا بحاجة إلى درب الطعام. فلن نعثر فيه على ما يفيد.

سار الصيّادون عشر دقائق أخرى، قبل أن يشير أرتيوميتش بسرور:

- هل ترى؟ لماذا تومئ؟ انحنِ على الأثر. هل ثمة فارق؟

- نعم. أومأ ديما متردداً.

- في أيّ شيء؟

- لا أعرف؟

- غريب! إذا كنت ستظل بهذه السرعة لا تعرف، لن تصطاد حيواناً. انظر. باتت قوائم الحيوان متباعدة، وستكون قفزاته أقصر. لماذا؟

- هل تعب؟ خمَّن ديما.

- لقد أُتخِم! ضحك أرتيوميتش. ملأ بطنه وذهب إلى البيت. بهذا البطن لن يقفز بعيداً. أنت ترى، أي درب الآن؟

- الدرب المستقيم؟

- تما - ا - ا -م! وقلتَ إنك لا ترى شيئاً. طبطب أرتيوميتش على قبعة ديما، وانزلقت على جبينه، فعدّلها. - لم يبقَ الآن للسنجاب ما يبحث عنه، فقد أكل وذهب إلى البيت. لهذا يجري بخط مستقيم، وتوقف عن الحفر.

- كيف تذكر الدرب إلى العش؟

- الله أعلم. زاغ أرتيوميتش عن الجواب. ما هذا السؤال؟ إنه لم يتذكر أي شيء، جرى ببساطة إلى عشه، وهذا كل شيء.

سار الصيّادان بمحاذاة الأثر. تذكر ديما نصائح عمّه، لذلك حاول أن يحيد قليلاً كي لا يتلف درب الحيوان. فإذا ما تداخل وتقاطع مع الدروب الأخرى، يمكن العودة إليه وتمهيده من جديد.

حين اتجهت آثار السنجاب نحو أشجار الصنوبر، اتخذ ديما جانب الحيطة والحذر، فتلمس البندقية على كتفه وسأل:

- هنا؟

- كلا. هزَّ أرتيوميتش رأسه. الأحمق أحمق، إنه لا يركض نازلاً حتى عشه. بقيَ نحو ثلاثين متراً. لا بدّ أن يكون السنجاب قد صعدها جرياً. ففي الخريف لا جدوى من البحث في درب ترابي أسود. أسهل من ذلك أن نبحث في الثلج. والأهم أن ننظر بالعينين، لا بالمؤخرة.

لم يفهم ديما كيف يمكن متابعة البحث عن السنجاب، إلا أنه لم يسأل عن ذلك. لقد رأى أن أرتيوميتش عبس وصار جدّيّاً. فطاف حول الشجرة بخطوات بطيئة، وراح يتفحّص غطاءها الثلجي الذي كان يتماوج ويلمع تحت أشعة الشمس، تتناثر نفايات الغابة على أجزاء منه.

كانت السماء المنخفضة مثل سقف من الرخام فوق أشجار التايغا. وكانت ثقيلة، كتيمة بلونها الأصفر الشاحب، الضارب إلى الحمرة وما يتخللها من عروق جليدية زرقاء. تحجبها غلالة من غيوم شفافة، أو ربما باتت هي نفسها، وقد جمّدها شتاء ديسمبر، كالحة، عديمة الملامح.

تذكر ديما، وهو يتلفّت حوله، كيف كانت معلمة التاريخ إِلْفْتينا غيورغيفنا تحكي لهم في شهر سبتمبر عن الرحّالة الإغريقي بيثياس[15] الذي كان أول إغريقي وصل إلى البحار الشمالية. وهناك شاهد لأول مرة مساحاتٍ هائلةً من الثلوج التي تتحول كيلو مترات منها إلى طبقات سميكة من الجليد على مدِّ النظر. ولما عاد بيثياس إلى وطنه، وحكى عمّا رآه، لم يصدقه أحد. ولقّبه أصدقاؤه بالراوي الدجّال.

بالطبع، لقد شاهد اليونانيون القدامى الثلج الخفيف، لكنهم لم يتصوروا أن الثلج يكون غزيراً بهذا الشكل. لذلك ظلّوا يهينون هذا الرحالة بالسخرية منه حتى مات. «ليتهم يرسلون جميع أولئك الأذكياء إلى هنا. جال بخاطر ديما. وكما في ذلك الدرس، تأسّف ديما على بيثياس، وأشفق عليه في وحدته الجائرة. ويلقون بهم في هذه الكثبان الثلجية لنسمع ماذا سيقولون».

انتقل أرتيوميتش فجأة إلى الشجرة التالية، أما ديما الذي أدار ظهره للخلافات الإغريقية القديمة، فقد أسرع السير وراء الصياد. كان ينتظر توضيحات، ولكن أرتيوميتش لاذ بالصمت.

ولما انتقل إلى الشجرة الثالثة لم يتمالك الفتى نفسه:

- وماذا؟

وعلى مضضٍ أوضح له الصياد همساً، أن السنجاب قد مر من هنا سريعاً قبل أقل من ساعة، وأنه يمكن اقتفاء أثره بما تساقط عن الأغصان من ثلج طازج. فقد سقطت من تحت أقدامه قشور لحاء، وقوالب صغيرة من الثلج، وخصلات أشنات، وحتى مكانس من الطحالب. كل هذا كان علامات جديدة، تدلّ على درب صعود السنجاب.

مهما تمعن ديما في الثلج، فإنه لم يلحظ شيئاً. فقد ظلت نفايات الغابة شيئاً متكرراً بالنسبة له.

ظن أن أرتيوميتش كان يتلاعب به، أو كان ببساطة يخدعه، لكن الصياد مشى بثقة، وكان يخطو بحذرٍ خشية أن يخيف السنجاب.

- إنه هناك.

مرة أخرى لم يرَ ديما شيئاً.

- السنجاب؟

- العش. عند الجذع، بين الأغصان. اذهب إلى الشجرة، وعندما أعطيك الإشارة دقَّ عليها.

- لماذا؟

- السنجاب أحمق. ابتسم الصياد بهدوء. إذا دققت، سيهرب فوراً، ويتجمد. إنه يكف عن الحركة دائماً. سيجمد حتماً. دائماً يفعل ذلك. لعدة ثوان، لا أكثر. وقتها تطلق عليه النار. عندك فرصة واحدة لطلقة واحدة. إن لم يتسنَّ لك، فإنه سيتابع الجري، ثم جرِّب أن تطارده. المهم أن تنتهز اللحظة. هات البندقية.

قبل أسبوع مضى، كان ديما سيغضب ويطالب بأن الطلقة من حقه. فالبندقية بندقيته. لكنه كان الآن، لسبب ما، مسروراً بأن أرتيوميتش قرر، ومن دون نقاش، أن يكون هو من سيطلق النار.

فعل الفتى كل ما طلبه الصياد منه، فتسلل إلى شجرة الصنوبر. ودقّ بقبضته على قشرها. ولم يعقب ذلك إطلاق نار.

عثر على غصن قوي، ودق به على الجذع.

رمى أعلى الشجرة بعدّة كرات من الثلج.

لا جدوى. ظلّت البندقية صامتة.

قرر أرتيوميتش أن السنجاب الذي يطاردانه كان في غاية الذكاء. فقد اختبأ في عشه، ولا معنى لإطلاق النار عليه. وإلا بقيَ في العش. والصعود للحصول على فرائه أمر خطير.

- طيّب، فلنتركْه.

لم يعد هناك معنى للانتظار بعدُ.

استسلم الصياد، ولكنه أخيراً نصب له بالقرب من الشجرة فخاً مزوّداً بحبلٍ يؤرجح الحيوان عالياً في الهواء.

ومرة أخرى تعجّب ديما من بساطة هذا الحبل وجدواه.

أسرع أرتيوميتش بالذهاب لتفحص المصائد القديمة. فقد كان منزعجاً من إضاعة ما يقارب ساعة من النهار بسبب سنجابٍ تافه. وتبِعه ديما على زلّاجته، سالكَين طريق المجيء. ووصلا إلى درب السناجب السفلي الذي جاءا منه قبل قليل طمَعاً بالطريدة. فانحنى ديما ليرى الآثار، عندما انهار شيء خلفه، وأصدر صوتاً يشبه الصرير أو الحفيف لم يخمد، بل ظل رفيعاً وعالياً.

- لقد خدعَنا! صاح أرتيوميتش.

- ما هذا؟

- ما هذا، ماهذا؟! إنه السنجاب! لقد قلت لك إنه أحمق! هو الآن شبعان، لكنه طمع بأكواز لا تكلّفه شيئاً. فكيف لا يأخذها، وهي بجوار العش.

كل هذا قاله الصياد على عجَل، وهو يسرع نحو الفخ الذي نصبه قبل قليل. ونطق كلاماً آخر لم يفهمه ديما، وهو يتبعه مسرعاً.

فتح فمه قليلاً بسبب اضطرابه. وحدّق أمامه باحثاً بين الأشجار عن الحبل الذي اشتغل. لم ير شيئاً، ولكن الأصوات ازدادت قوّة.

- ابتعِدْ! صرخ أرتيوميتش.

بلع ديما لعابه البارد، ولسعت الريح أسنانه. وتحت شملته على كتفيه خفق قلبه الأبيض في صدره الأبيض. وغطى هبوب الثلج كل أفكاره ومشاعره. ورأى السنجاب، وقد أطبق الفخ على رجله، يتأرجح على الحبل في الهواء، يزعق غاضباً، ويفحّ بغضب، مثل حصان هائج ضئيل الحجم. يلوّح برأسه، ويحاول الخلاص بكل ما في جسده من قوة. تتشبث أسنانه برجله العالقة في الفخ. تشدّها. يتراجع قليلاً صوب الجذع، ويعيد الكرّة من جديد... ولكن محاولاته كلَّها تذهب سُدى. يعجز عن الخلاص. لا يفتح الفخ قوسيه القويين.

تجمّدت عينا ديما، وأدرك لماذا ينظر فلا يستطيع التحكم بهما، ولا ترفّ جفونه. بل ولم يلحظ كيف اقترب من الفخ.

حبست التايغا أنفاسها، وراحت تراقب السنجاب العالق في الفخ صامتة وعمياء.

وقع نظر السنجاب على الصيّادَين فشرع يتحرك بأقصى درجات الجنون. وارتفع صوت زعيقه وفحيحه في نغمة يأس واحدة. خمد السنجاب، وأسبل جفنيه، حتى ظُنَّ أنه مات. لم يكن فيه ما يدل على الحياة إلا صدره المضطرب، المزيّن بالبياض، وهو يعلو وينخفض سريع الأنفاس. كان السنجاب يتأرجح على الحبل بانتظام.

لحظة أخرى وعاد السنجاب ينتفض بقوة من جديد. عاد إلى هياجه، واندفاعاته القانطة، ومحاولاته الخلاص. وأخذ هذا الزعيق يُغضب ديما، ويرفع النبض في صدغيه. تجمّع الغضب بين أضلاعه، وامتد إلى حنجرته، ثم ارتفع صراخاً، ليحجب زعيق هذا السنجاب، ويمزّقه بصوته.

- ماذا تنتظر؟ تناهى إلى سمْعه من مكان بعيد.

- اقْضِ عليه! سيكون صيدَك الأوّل.

قال أرتيوميتش، وهو بالقرب منه، لكن ديما لم يرَه. لم يكن يقوى على الالتفات. لقد غدت رقبته من جليد.

- كيف؟ سأل أحدٌ ما بصوت جاف.

ديما نفسه مَن سأل، ولكنه لم يعرف صوته.

- كيف، كيف... خذ عصا واقضِ عليه.

«اقْضِ عليه...».

راح الفتى يبحث عن العصا التي كان يدقّ بها الشجرة قبل قليل. لم يجدها. فاغتاظ. وصار لعابه كثيفاً. يبلعه بصعوبة. فازداد غضبه درجة. والسنجاب... أكثرُ من أثار غضبه هو السنجاب.

«اغلقْ فمك».

وجد العصا، ورفعها. ظن أن يده ضعيفة، مترددة في رفعها. خلع القفاز عن يده ورماه. أمسكها براحة كفه العارية. بقايا الأغصان الصغيرة المقطوعة عن العصا جليدية حادة، وقشرة العصا وسخة. هذا أفضل.

«الآن سأفقد فردة القفاز الاحتياطية أيضاً».

«أيها الحشرة. سنصنع منك قبعة».

«المهم ألا أنسى فردة القفاز».

اقترب ديما من حبل الفخ...

تجمّد السنجاب. صامت. معلّق. لكنه يتنفّس. «قررتَ الخداع؟ خاب ظنك!» ضربه ديما، فطار مع الحبل، وعاد إلى الزعيق بصوت أقوى. أخذ يصرخ من أعماقه وينتفض. ضربة أخرى. طار. جُنَّ جنونهُ، لا يعرف أرجله من ذيله، من رأسه. «أيها النتن...» وضربة أخرى أشدّ قوّة. طار أعلى من ذي قبل، واصطدم بالجذع، وعاد. لا تتوقف حياته. «توقفْ!»

تناهى صوت جديد من الخلف. مسموم ومديد. ارتجف ديما. لقد أدرك أن الذي يضحك هو أرتيوميتش. ومع كل ضربة كان صوت ضحكه يزداد ارتفاعاً.

ضغط الغضب ويأس الأيام الأخيرة الماضية على أنفاسه. كأن خرّاجاً تجمّع في صدره ثم انفجر، وسال على جسده قيحاً كريه الرائحة، يدمِّر ويقتل. انهال ديما بعصاه على السنجاب ضرباً، لا يتوقف. يطير الحبل بالحيوان ويعود. تشتبك العصا بالحبل. ينترها. يضربه، ويعيد الضرب بطريقة تشبه لعبة جنونية. تسليةُ عيدٍ كما في أفلام الكوميديا الأميركية بمناسبة عيد ميلاد. تسلية مضحكة! شدّدِ الضرب، تتناثر من السنجاب سكاكر وشرارات. زرقاء، صفراء، حمراء.

شرارات حمراء. تتشوّه ابتسامةً على وجه ديما. يصرخ. يختلط صراخه مع صراخ السنجاب، وضحكِ الصياد.

عضَّ ديما على شفتيه حتى سال الدم، ودموعه تنهمر، راح يقفز في مكانه. تلوّى وتقوّس من رأسه حتى قدميه. مزّق بالصراخ حنجرته قِطعاً دامية. كمن وقع في فخ صيادين وهو الآن يصارع لنيل حريته. وانتفض عندما هبط السنجاب فجأة نحو وجهه. كان أرتيوميتش هو من رفع الطرف الغليظ من الحبل، على أمل بأن يهوّن على الفتى عمله. حتى إنه نطق شيئاً، ولكن ديما لم يسمعه. وبكل ما أوتيَ من قوّةٍ هوى على الشجرة بعصاه، فانكسرت. صرخ الفتى وقذف بها أرتيوميتش. لكنه أَفلتَ الحبل، وتفادى الضربة. ثم شتم، وكاد أن يقترب من ديما، ولكنه رأى لحظتها أن السنجاب قد تحرر وطار. لقد حزَّ الفخ المتين رجله، فتمكن أخيراً من قطعها بقفزة قوية، وتخلص من الفخ. ثم سقط على الثلج، فمال جانباً وانطلق. اندفع الصياد في أعقابه يتبع آثاره الملطخة بالدم.

ساد الهدوء.

سقط ديما على ركبتيه.

كان جسده يرتعش كله.

شعر بفمه يتقلّص. وتدفّق اللعاب تحت لسانه. لم يتسنّ لديما أن يبصقه لكثرته. ثم بات لزجاً، فانقبضت حنجرته وعلت، واستسلم لغثيان كالصنبور. لم يكن ديما يعلم أن الغثيان يكون بهذه القوة. وانحنى إلى الأمام. أحسّ بهجمة غثيان أخرى. استجمع كل قواه. تجشّأ شيئاً مرّاً فقط. فبلع ريقه، وتماسك.

استند بظهره إلى الشجرة. نظر إلى الحبل والرِّجل المقطوعة في الفخ. كانت تنزف دماً. تمنى أن يكون في بيته. هكذا، برمشة عين، أن يجد نفسه في غرفته، وسط ضوضاء المدينة. أن يسمع غمغمة التلفزيون في الصالة، وحديث أمه بالهاتف مع صديقتها. ضجيج أصوات البنات في الشارع وهن يشكِّلن رجل الثلج. وأصوات حركة السيارات. وبنفسجة على حافة الشبّاك، تجمّع الغبار على أوراقها المخملية. وشقوق إطارات النوافذ مسدودة بمطاط سائل، يغطيه شريط لاصق شفاف. والشمس تنعكس في المرآة، وتطلق أشكالاً ضوئية باردة. وعلى الباب ملصق عليه صورة حارس المرمى الألماني الشهير أوليفر كان. أن يكسر أصيصها ويدوسه بقدميه... كان ديما مستعداً لفعل كلّ ما يُطلب منه مقابل أن يكون في البيت فقط. ولكنه كان بعيداً جداً. ضائعاً في التايغا. حتى إنه لا يستطيع أن يعود بمفرده إلى البيت الشتوي. فأيُّ صياد هو؟ أيُّ آثار حيوانات هنا، ما دام عاجزاً عن فهم آثاره هو؟

«ما أثقل هذا الوضع...».

اختفى غضبه الذي كان قبل قليل. لم يبقَ غيرُ فراغ غطّى صدره من الداخل برمل أسود.

- لم أتوقّع هذا منك! عاد أرتيوميتش راضياً. صحيحٌ أن تحت السواهي دواهي. لقد أشبعتَ السنجاب ضرباً، والشجرة، وكنتَ تريد أن تضربني أيضاً! قهقه الصياد. لم أتوقّع... لقد ضربتَه على رأسه مرة وسكتنا. ولكنك قطعتَ الجزء الخلفيّ من جسمه. طيّب، هيّا بنا. ما يزال أمامنا كثير من العمل.

صمت ديما الوقت الباقي من نهار الصيد. فلم يعِرِ الفِخاخَ اهتماماً، ولم ينظر إلى آثار السمّور. كان يسير بطيئاً خلف أرتيوميتش، ونادراً ما كان يلقي نظرة إلى السنجاب ثُلاثيِّ الأرجل. كان منهَكاً، لا يفكر بشيء، ولا يريد إلا أن ينتهي هذا النهار بأسرع ما يمكن.

في البداية كان الصياد يشجِّع ديما، ثم نسيَه كأنه اختفى تماماً.

في طريق العودة إلى البيت، كان ديما يدرك الآن أنه لن يمارس الصيد. لن يقتل حيواناً واحداً، ولن يسلخ جلداً واحداً. ولن يتباهى أمام ساشكا بدقة التسديد والرمي. بل ولن ينظر إليه. سوف يجلس على مقعد آخر. حتى ولو بجانب سيرغييّف صاحبِ حقيبة الظهر المدرسية، وأقلامِ الرصاص المقضومة بأسنانه. سينتقل إلى أي مقعد، شريطةَ أن يكون بعيداً عن ساشكا، وعن بندقيته الضغط، وصرخته الأبدية: «Headshot».

تعجّب من قبوله هذه الفكرةِ وبهذا الهدوء.

كان أرتيوميتش وديما أوّل العائدين. وكان في استقبالهما فيتيا عند عتبة البيت. ومرة أخرى لم يأتِ الغُراب الأسحم إلى الكمين.

«هذا ما تستحقونه».

الفصل التاسع



في المساء راح الصيّادون يلعبون الورق، واستلقى ديما على سريره يستمع إلى أحاديثهم من دون اهتمام.

- كيف يحصل ذلك. هزَّ فيتيا رأسه ورمى بورقة الآس البستوني. عندما لا نكون موجودين يأتي، عندما نرصده ونكمن له لا يظهر أبداً؟

- أنت تثير الضجيج، هذا كل ما في الأمر. همس نيكولاي نيكولايفتش وغطى ورقة الآس بالولد.

- إلى أين؟ انتعش أرتيوميتش.

- إلى هناك! لقد أثنيت على ورق السباتي. - وضرب العم براحة كفه على الأوراق وسحبها نحوه.

- بأيِّ معنى الضجيج؟ تجهم فيتيا.

- بالمعنى المباشر. تثير الضجيج وأنت تراقب. يعرف الغُراب الأسحم بوجودك حالاً. هو ليس بأحمق، فيولّي الأدبار. وإلا، فإنه سيحط قريباً وينصت. إذا كان الجو هادئاً، يفهم أنه لا يوجد أحد. ويمضي آمناً إلى اللحم.

- أقول إني جلستُ هادئاً! ليس أهدأ منّي إلا الأموات.

- صحيح... ضحك أرتيوميتش من دون صوت.

- طيّب، لا تصدق، هذا شأنك، ولكني أقول...

- قد تكون غفوت، ونسيته تماماً؟!

- كيف أغفو؟ الغُراب الأسحم لم يأتِ. لو أنه جاء وأنا نائم، لنقرَ اللحم.

- صحيح. وافق أرتيوميتش، وراح يتكلّم بنبرة ألطف: - دعني أبقى هنا غداً. سأجرِّب.

- ربما نبقى جميعاً هنا؟ اقترح فيتيا.

- لا، عندها سيلاحظ حتماً. وأنت يا أرتيوميتش، جرِّب. قال له نيكولاي نيكولايفتش الذي تعب من الربح بلا فائدة، فوضع دستة الورق المهترئةَ جانباً.

- هل حقاً كنت على البرميل؟ لم ينتبه فيتيا كيف خسر اللعب. كم لديك من النقاط؟

دفع نيكولاي نيكولايفتش نحوه بالورقة التي كان عليها حساب النقاط، ثم نظر إلى أرتيوميتش، وقال:

- غداً نهار جميل، لذلك لن نحرس البيت من الغُراب الأسحم. اذهب الآن، وافحص جميع الفِخاخ كي لا تظل هناك بلا جدوى، وبعد ذلك سنرى.

- نعم. وافق أرتيوميتش. وقد يكون خاف من الفزاعة؟

- جثة الغُراب الأسحم؟

- نعم.

- ربما.

- هل نلعب دوراً آخر؟ ابتسم فيتيا.

- وزِّعِ الورق. تنهد العم، وألقى إليه بالورق.

الآن لم يقترح أحد جمْع اللحم عن الحبال. خُيِّل للصيّادين أنه استسلام غبيّ بعد كل محاولات القبض على الطائر أو تخويفه.

تبجح أرتيوميتش، وهو يوزع الورق، بأن سنجاب اليوم كان متغير اللون تماماً، أي أن فراءه ممتاز من الدرجة الأولى.

- هل كان لحمه تحت الجلد أزرق؟ سأله نيكولاي نيكولايفتش.

- كان صافياً! لا أثر فيه للون الأزرق. رأسه فقط كان أسوَد قليلاً.

- ها هي! رمى فيتيا ورقة بنت الكُبّه.

- آه، يا حقير! مدَّ أرتيوميتش صوته.

- أنت من أعطيتها له. ضحك نيكولاي نيكولايفتش.

- ما أدراني أن ورقته (العشرة) مغطّاة!

دبَّ المرح بين الصيّادين، وحكى أرتيوميتش للجميع كيف قضى ديما على السنجاب وهو عالق في الهواء.

حبس الفتى أنفاسه، وكزّ على أسنانه حتى الألم. كانت كُلُّ ضحكة يطلقها الصيادون تكوي قلبه. لقد أحس ديما بالإهانة. بل ولم ينظر إليه أحد.

شبع الصيّادون ضحكاً على السنجاب وهو يجري هارباً على ثلاث أرجل. ثم عادوا إلى الحديث عن الغُراب الأسحم من جديد. لم ينسَ فيتيا أن يحكي لهم عن الضجر في الكمين، وأنه لا شيء أسوأ من قضاء يومين بلا تدخين إلا الصيد في مستنقع صيفي، حيث لا يتوقف البعوض والذباب عن الطنين، ويلتصق بالعيون والآذان. ضحك فيتيا، ووزّع الورق وهو يحكي عن الرغبة الشديدة بأن يدخّن خفية ولو سيجارة واحدة.

- خطر لي أن أندسّ ولو قليلاً في كيس النوم.

لم يتحمل ديما. التفت إلى الصيّادين، وببطء وهو يشعر بأن الاضطراب يسري خدراً في يديه، قال:

- كان في المرمدة أعقاب سجائر.

- ماذا؟ لم يفهم العم، كأنه تعجب وقد اكتشف وجود ابن أخيه في البيت.

«إنني غريب هنا». جال في خاطر ديما.

- لقد نظّفتُ المرمدة في الصباح، ولمّا عدنا كان فيها أعقاب سجائر.

شاهد أن كل كلمة يقولها تجعل وجه فيتيا العريضَ، المشرق، يحتقن ببقع كبيرة، ويبدو في ضوء النار قاني الحمرة. سُرَّ ديما حين شعر أنه انتقم من هذا الصياد الذي كان قبل لحظة يضحك لنكات أرتيوميتش.

تجمّد الرجال مع ورق اللعب. ونظر الجميع إلى فيتيا، لكنه غمغم شيئاً ما وهو يبتسم خائفاً، يريد أن يبرّئ نفسه، إلا أنه تعثر بالكلام.

أصيب ديما بالذهول. فقد بدا له الصيّاد بائساً، إذ بدلاً من أن يردّ بغلظة وإصرار، تلعثم ولم يعرف كيف يواجه هذه التهمة. كان بوسعه أن يقول إن ديما يهذي، وإن الأعقاب كانت قديمة، أو أيّ شيء آخر، ولكنه اكتفى بالتبرير.

«عبثاً تصرّفتُ هكذا. كانت أمّي على حق وهي تقول لا تنتقم إن كنت لا تحسن التمتع بالانتقام، لا تنتقم إذا كان ضميرك مطمئنّاً. بل وما علاقة فيتيا بهذا، فأنا المذنب في كل شيء».

همهم أرتيوميتش بارتخاء. زال التوتر، واستأنف الصيّادون اللعب. لم يفكر أحد بأن يدين فيتيا. حتى نيكولاي نيكولايفتش لم يتفوّه بكلمة واحدة عن خداعه.

- كنت أظن أن جميع طيور نقّار الخشب تهاجر في الشتاء إلى الجنوب، قال أرتيوميتش.

- صحيح، - أومأ العم برأسه.

ضحك الصيّادون من جديد، أما ديما فقد أدرك فجأةً أنهم يتحدثون عنه، ويسمونه جاسوساً... كان الجميع يعرفون، ومن دون الكلام الذي قاله، أن فيتيا يدخن، ويثير ضجيجاً، وعموماً لا يراقب الغُراب الأسحم باهتمام. وكانوا يدركون أنه لا يستطيع العيش ساعتين من دون سيجارة، ويضحكون عندما يصر على كذبه، أمّا الآن فكانوا يضحكون على ديما.

«لماذا كل هذا المسرح إذاً؟»

أدار الفتى وجهه إلى الجدار، وغطس عميقاً في كيس النوم. ليته يغفو سريعاً. وليته ينام كل أيام الصيد الباقية.

- لقد ربحتُ! - صرخ أرتيوميتش، ورمى الورقة الجديدة على الطاولة.

في الغداة أرسلوا ديما مع فيتيا إلى الغابة. كأنهم نسوا ما جرى يوم أمس. على أقل تقدير، لم يتذكر أحد طيور نقّار الخشب، ولا السناجب التي أُشبِعت ضرباً بالعصا. الحياة مستمرة. مضى الصيّادون إلى الصيد في التايغا، وكل ما تبقّى لا أهمية له.

ترك ديما البندقية في البيت للمرة الأولى.

كان يتزلج بعيداً عن فيتيا، لم يسأله عن أي شيء. ولم يولِ اهتماماً للفِخاخ ولا للطُّعوم.

حفيفٌ تحت الزلاجات. في يديه قضيبان للدفع يغرسهما في الثلج، يخلِّفان فيه حُفراً عميقة، صغيرة، تحيط بها قباب. تقاربت الأشجار، وتعاظم حجمها، ثم اختفت خلف ظهره، وحلت محلها أشجار أخرى مثقلَة بالثلج.

تلاصقت فُتحتا منخارَيه في الصقيع.

أدرك ديما فجأة، أنه في الماضي كان يفكر بالصيد وهو لم يرَ الغابة إطلاقاً، ولم ينتبِه إليها. وكانت الغابة الكثيفة تبدو له مجرّد خلفية رتيبة متكررة. والآن تغيّر كل شيء.

لقد حلّت محلّ أشجار الحَور المتفرقة أماكنُ صخرية، وأشجارُ تنّوب كثيفة. وخلف المناطق الجرداء في الغابة تمتد مروج. كانت أغصان الأشجار تتشابك تارة، وتفترق تارة أخرى. وبعد الأشجار القصيرة التي تكاد تحجبها عن النظر كثبان الثلج، تبدأ مساحات جديدة ليس فيها شجر.

وفي أحد المروج كانت الآن طبقة جليد شفافة تغطّي الشجيرات الصغيرة كلّها، فتنوء تحت ثقلها، بينما تشرئبّ أغصانها الرفيعة مرِنة وقوية في الصيف نحو السماء. وهذا ما يحدث عندما يأتي الصقيع أيام الرطوبة العالية. إذ يغطي الضباب الشجيرات الصغيرة بقشرة جليد لا يستطيع كسرها طير ولا ريح. ويظل حرش الصفصاف المكسوّ بالثلج أسيراً تحتها للشتاء، لا حراك فيه حتى أواخر أيام ذوبان الثلوج.

صفٌّ أشجار التنّوب القريب يعقبه صفٌّ بعيد. كان الثلج ينتشر أمواجاً بيضاء وهو يهبط إلى الأودية الضيقة، ويصعد نحو التلال. حين نمشي وننظر إلى الأمام، أو نلقي نظرة جانبية، نستطيع أن نتخيّل بين الأشجار ما يشبه الآيائل، والغزلان الضخمة، ووحوش الغولو غولو الثمينة الفراء. كان ديما يعرف أن هذا خداع النظر، إلا أنه لم يشأ أن يبدِّده. كان يستنشق هواء الغابة، ويحبها بكل ما فيها من صور وهمية وحقيقية. يفكر بالحياة العظيمة المتنوعة التي ترقد الآن تحت أكوام الثلج، تتهيّأ لتنبثق وقت الدفء فيضَاً من عبق الروائح والألوان.

كان فيتيا يبحث عن أرض زراعية جديدة، بعيدة قليلاً عن الدرب؛ فقد ذهب الصيّادان بعيداً في الغابة، بخلاف ما يريدان. إلى حيث الأشجار متقاربة يصعب المرور بين جذوعها، وتصطدم الزحافات بجذورها، وبأغصان أسقطتها الرياح واحترقت من زمان. فاضطرا للتوقف والرجوع.

تسلل الصيّادان تحت أغصان الصنوبر المثقلة بالثلج، ونفضا عن رأسيهما أكوام الثلج. كان فيتيا يتذمر، أما ديما فكان يتشرّب السعادة بالتايغا حتى الأعماق. لم تفارق البسمة وجهه، كأن ريح الشتاء جمدتها على شفتيه.

نظر إلى الأعلى ورأى عبر أغصان الصنوبر السمينة كيف تتأرجح رؤوسها المدببة. أحياناً كانت تيجان الأشجار تُصادَف هنا هزيلة، ضعيفة، وعوجاء. ولكنها في معظم الأحيان كانت ممتلئة، تعلو ثقيلة حتى السماء.

روى فيتيا وقت الغداء شيئاً عن الصيد، لكن ديما لم يستمع إليه.

كانت رائحة النار كثيفة على نحو خاص في الهواء الشتوي العديم اللون. وكان الدخان يتصاعد لولبياً، نحيلاً، إلى أعالي الشجر، ثم ينحني فوقها قوساً شفّافاً سرعان ما يتلاشى. وكان ديما متأنياً يلقي بأغصان جديدة إلى النار.

وسرعان ما غاصت النار الملتهبة في الثلج حتى بلغت الأرض. ونتجت عنها حفرة تسيل على جدرانها خطوط ماء سوداء. وظهرت الأعشاب صفراء، إذ إن ألوان الخريف المتغيرة أطلّت فجأة من تحت غطائها الشتوي.

انطفأت الجمرة الأخيرة في النار، انتفضت على طرف قطعة الفحم، وانطلق منها في الحال شريطٌ رماديّ من الدخان. كان لا بدّ من مواصلة السير.

عادوا إلى البيت قبيل المساء، وبالكاد أمسك ديما عن إطلاق صيحة الفرح. لقد جاء الغُراب الأسحم من جديد وأشبع اللحم نقراً. لم يشاطر الفتى أحدٌ سعادته. عاد أرتيوميتش خاوي الوفاض. فالسمّور الوحيد الذي وقع في فخه أتلفته الطيور كسّارة البندق. وعاد فيتيا أيضاً بيدين فارغتين، أما العم فقد جاء ومعه جثة السمّور الممزقّة. كان تَمْغا قد حشر السمّور تحت شجرة تنّوب قديمة، فلم يبقَ أمام هذا الحيوان الشجاع إلا الهجوم على الكلب. تبادل الخصمان الفحيح والهرير وهما يكشّران عن أنيابهما، ثم وثب السمّور وأنشب مخالبه بتَمْغا. لكن الكلب الذي تدرب على قتال القطط كان معتاداً على هذه الهجمات، فتغلّب على خصمه. وعند وصول نيكولاي نيكولايفتش كان الكلب قد قتل السمّور، وأتلف جلده.

«البليد بن البليد».

وقت العشاء دار الحديث حول الغُراب الأسحم الذي لم يخَفْ حتى من جثة ابن جنسه المعلّقة مع اللحم. واتفق الصيّادون على أن يبقى أرتيوميتش في البيت غداً. لكن هذا استقبل القرار مازحاً، وقال إن من الأفضل أن يكلّف بهذه المهمة نقّارُ البندق. إلا أنه لم يُبدِ إصراراً على مضمون النكتة التي لم تضحِك أحداً.

انتهت السهرة بأشغال صغيرة. فشبك نيكولاي نيكولايفتش كُمَّه الذي انفتق. وفحص فيتيا بَراغي الزلاجات. وأعدّ أرتيوميتش له الطعوم. بينما كان ديما يفكر بالغُراب الأسحم. لم يكن يعرف كيف يساعده في معركته مع الصيادين. بل وخطر له أن يسرق قطعة لحم ويعلِّقها له على طرف الحرش ليأكلها ويتخلى عن الاقتراب من البيت. غير أنه أدرك أن القيام بهذا العمل لن يكون يسيراً.

قرر أن يضايق الصيّادين قدْرَ استطاعته، أن يخرِّب الأفِخاخ، أن يقطع الحبال، أن يضيف إلى الطُّعم مادة منفِّرة. «لو أسكب بعض الماء في بندقية عمّي كوليا قبل خروجه لتتجمّد هناك. آه، كم ستكون فرحته!» وشيئاً فشيئاً غفا ديما وهو يبتسم لهذه الأفكار.

في الصباح كان لا بدَّ من خلع زجاج النافذة مرة ثالثة. ووضع نيكولاي نيكولايفتش بعض الحطب في الموقد، وطلب من أرتيوميتش ألا يضيف المزيد، على الأقل حتى الغداء، كي لا يكون الدخان أكثر من المعتاد في أيام الصيد العادية. واقترح عليه أيضاً، تفادياً للضجيج، ألا يتجاوز العتبة، وأن يستخدم الدلو عند الضرورة. فضحك أرتيوميتش لذِكْر الدلو، وأكثرَ من المزاح والتهديد بأن يقضي حاجته في قصعة فيتيا الذي ردَّ عليه بالضحك أيضاً، ولكنه من باب الحيطة وضع قصعته في حقيبة ظهره، وبذلك جعل أرتيوميتش يزداد مرحاً.

قال ديما إنه سيذهب مرة أخرى مع فيتيا، فلم يعترض عمُّه. كان الآن لا يكلّم ابن أخيه تقريباً. فلا يعلِّمه الصيد، ولا يطلب منه أن ينظف البنادق. لقد أحس بما طرأ على ديما من تغيّر، سرعان ما تقبّله. كان يهمّه أن يتعلم ديما الصيد، وألا يشغل نفسه بالتفاهات.

«لستُ مربّية أعتني بك مقابل أجر. إنك أكثرُ شبَهاً بأمك. مثلها متقلِّب المزاج. لكنّ هذا شأنك»، - جال في خاطر نيكولاي نيكولايفتش وهو يشيِّع بنظره ابنَ أخيه وفيتيا.

ودّع أرتيوميتش الصيّادين، لكنه لم يخرج من البيت. بصق في الزاوية، وجلس على مقعد خشبي صغير، ووضع البندقية المحشوة على ركبته وراح ينتظر.

لم يسمح لنفسه بالضجيج. وامتنع عن المشيِ في البيت. وحين اشتد البرد، تدثر بكيس النوم وعاهد نفسه أن ينتطر، فلا ينهض عن مقعده قبل المساء. ووضع على الطاولة القريبة بعض ما يحتاجه من شاي ومعكرونة بائتة مع اللحم.

شجّع الصياد نفسه بنفوره من الغُراب الأسحم، وبأنه إذا اصطاده يستطيع أن يسخر من فيتيا.

في انتظاره الممل كانت أقلُّ حركة تستدعي لدى أرتيوميتش تفكيراً طويلاً.

وراء البيت، هناك حيث يتكدّس الحطب، صوتُ خطوٍ هسيس. أرهف أرتيوميتش السمْع. ثعلبٌ. أو ذئبٌ فتيّ. وسرعان ما توقفت الخطوات.

قُبيل الغداء سقط فنجان عن الرف. صوتُ سقوطه انتشر في محيط البيت كلّه. انتفض أرتيوميتش، وضغط بقبضتيه على كيس النوم، وشتم الفنجان بصوتٍ خفيض.

أحسّ بألم في رجليه وظهره. همد الموقد وصار بارداً. نمّل خدّاه من البرد. في جلوسه الطويل هاجمه النعاس. أحسن الصيّاد مقاومته، إلا أنه كان يسهو أحياناً، فتأخذة غفوة قصيرة ولذيذة. وفجأة ينتفض، ويتثاءب، ويثبّت نظره على النافذة، وكأن الغُراب الأسحم صغير مثل ذبابة، لا يستطيع أن يراه إذا حطّ قريباً من اللحم.

كان وعيه يضعف أحياناً، فيتخيّل صوراً غريبة وغير مألوفة.

راودته ومضاتٌ غير متوقّعة ذكّرته بالقرية وأطفاله الباقين فيها: ولداه وطفلته الصغيرة. سيأخذ الصبيين ذات يوم إلى الصيد، وطبعاً لن يكونا مغفَّلَين مثل ديما. لن يتشيطنا وينشغلا بضرب الشجر، وقذف الحجارة، ثم بالشكوى مثل امرأةٍ عاقرٍ في دار حضانة للأطفال. ضحكة مكتومة، واستيقظ أرتيوميتش من غفوته.

رأى الغُراب الأسحم على الحبل.

انقبض صدره من البرد.

ضغط على البندقية، لكنه هدأ في الحال.

أدرك أن ما رآه فزّاعةً، طائراً ميّتاً منذ الأمس، معلقاً لتخويف اللص.

- إنه لص، - همس أرتيوميتش، وهو نفسه ضحك ساخراً من نكتته. وقرر أن يحكيها حتماً لنيكولاي نيكولايفتش. - إنه لص، ولا شيء آخر.

لم يأتِ الغُراب الأسحم.

عاد الصيّادون.

- شيء غريب. تنهّد فيتيا.

- وماذا، هل علينا الآن أن نحرس هذا اللحم كل يوم؟ سأل أرتيوميتش.

- هُراء. يجب أن نجد حلاً. ردّ نيكولاي نيكولايفتش.

- ما هو؟ ألقى فيتيا على المدفأة السمّور الذي اصطادوه اليوم وقد تجمّد مثل صرّة من الفرو. من الأفضل أن تخبرنا من أين يعرف أن هناك من ينتظره.

أجابه نيكولاي نيكولايفتش بعد انتظار. لوى شفتيه وتمتم مُكرَهاً:

- إنه يحسِب عددَنا.

كان الهدوء المألوف يخيم خلف الجدران. وأصبح البيت دافئاً، ولكن الصيّادين تكاسلوا، ولم يخلعوا كنزاتهم الشتوية بعد. انعكست ظلال ضيقة على الجدران. وكان الماء يغلي في الطنجرة. والكلب تَمْغا قابع بجوار العتبة، يلعب بذيله في انتظار العشاء.

نشر ديما ورق اللعب على السرير.

- من يَعُدّ؟ لم يفهم أرتيوميتش.

- الغُراب الأسحم، مَن؟

- هذا مستحيل.

- يعني، ممكن. هزَّ نيكولاي نيكولايفتش رأسه. إنه يراقب من بعيد. هذا ليس صعباً. يحط على شجرة، بين الأغصان، ويختبئ. أسود اللون ولن يراه أحد. ولاسيّما... عموماً، ينظر ويعُدّنا. يعرف

كم هو عددُنا. خرج أربعة رجال وكلب، يعني لم يبقَ في البيت أحد. أمّا إذا خرج ثلاثة، فهذا يعني أن واحداً بقيَ في البيت. لذلك لا يأتي.

- هذا مستحيل.

- كوليا على حقّ، وإلا ما التفسير؟ تمتم فيتيا.

- لا أعرف، ولكني لن أصدِّق أن الغُراب الأسحم يَعُدّ. شيء سخيف! وهل هو كالإنسان؟ أقول لك إن هذا مستحيل! من يسمعك يقول إنه حان له أن يلتحق بمعهدٍ تقني. بل وقد يكون يحسِن القراءة أيضاً؟ تعال نترك له ورقة نكتب عليها: «اللحم ملكُنا. غرامة النقرة 500 روبل».

- تسعيرتك رخيصة. ابتسم فيتيا.

- إنه طائر. ماكر ووقح، غير أنه أحمق مثل جميع الطيور. أكّد أرتيوميتش.

- لكننا أغبى منه، ما دمنا لم نستطع أن نقتله. ختم نيكولاي نيكولايفتش كلامه.

- وماذا تقترح؟

- أقترح الاحتيال عليه.

- على من؟

- على الغُراب الأسحم.

- كيف؟

- على النحو التالي. لديّ فكرة صغيرة. غمر الفرح نيكولاي نيكولايفتش، فغمز أرتيوميتش.

الفصل العاشر



- وما هي؟ كان أرتيوميتش ينكش أظافره القذرة بعود رفيع. ما هي الخطة؟

- شيء بسيط. ضحك نيكولاي نيكولايفتش خفية. يظن الغُراب الأسحم أنه أذكى منّا. ونحن سنثبت له العكس.

- هل نترك له مسألة رياضية صغيرة؟ طار غراب من النقطة A والرصاصة من النقطة B فمتى وأين يلتقيان؟

- نتظاهر بأننا خرجنا كلّنا من البيت، في حين نكون قد تركنا وراءنا كميناً. لم يردّ العم على مزحة الصياد.

- نخرج معاً، ثم يعود أحدنا زحفاً إلى البيت؟ نزع فيتيا كنزته الشتوية، ففاحت من تحتها رطوبة دافئة.

- كلا. إنه سينتبه إلى ذلك. فهو ليس بأحمق...

غمغم أرتيوميتش معترضاً. لم تعجبه هذه الكلمات. كان يعتبر الحديث عن عقل الغُراب الأسحم جنوناً، لكنه لم يكن يعرف كيف يعترض، فلزم الصمت.

- يجب أن نصنع فزاعة. واصل نيكولاي نيكولايفتش كلامه.

- ماذا؟ لم يفهم أرتيوميتش.

- فزاعة! تكون تشبهك. لها يدان، ورجلان ورأس.

- أخفَّ وزناً. تضاحك أرتيوميتش.

- تبقى أنت في البيت، ونحن نخرج مع الفزاعة.

- سيتوجّب عليّ أن أشرح لفزاعتك أين هي فِخاخي. فقد تصطاد أكثر مني.

- سيرى الغُراب الأسحم أن أربعة أشخاص ذهبوا إلى الغابة، فيأتي إلى اللحم مطمئنّاً.

- وعندها - طاااخ! ضرب أرتيوميتش الطاولة بكفه على طريقة نيكولاي نيكولايفتش بقوة أخافت الكلب تَمْغا.

- هكذا بالضبط. أومأ نيكولاي نيكولايفتش برأسه وكرر بهدوء: - وعندها طاااخ.

- يا لها من فكرة! ضحك فيتيا. إذا جاء الغُراب الأسحم سيكون ذلك حكاية لسنوات كثيرة.

- سيأتي. لا مفر له.

هذه الخدعة بالفزاعة غمرت الصيّادين بالمرح. فظلوا سهرانين حتى ساعة متأخرة من الليل، يشربون الشاي، ويتحدثون بصوت مرتفع، ويضحكون. لم يسمع بيت الصيّادين الشتوي مثل هذا الهَرَج منذ زمن طويل. أقلق هذا الهرجُ تَمْغا، فراح يقلِّب نظراته الحائرة بين صاحب الدار وأصدقائه، وهو يطيل التثاؤب بخطمه الدافئ.

قبل النوم صنعوا دمية بهيئة صياد من سترة رثة، وثلاث مخدات، وسراويل رياضة، وقبعات شتوية بأذنين، وجزمة احتياطية كانت لأرتيوميتش. وتوجَّب على فيتيا أن يركض في الظلام لجلب أغصان لصنع اليدين والرجلين. وفكروا بتثبيت زلاجات على الفزاعة، لكنهم فطنوا إلى أن ذلك سيعيق التحكم بحركتها.

كان ديما يراقب باهتمامٍ ما يجري، لكنه لم يُعرب عن رغبة بأن يساعدهم. فلم يكن يريد المشاركة في صيد الغُراب الأسحم، حتى ولو بهذه الطريقة غير العادية. لو حدث هذا قبل أسبوع لكان اعتبره قصة مدهشة، واستعدّ سلفاً لأن يحكيها لأبيه ولساشكا. علماً بأنه كان منذ الآن مستعداً لإمتاعهم بحكاية مشابهة، أملاً بأن يُحرج الصيّادين أنفسهم ويُظهرهم مغفَّلين، بصرف النظر عن كل ما يبتكرون من حيل.

- شيء سخيف. غمغم أرتيوميتش وهو راقد لينام، لكنه ابتسم وهو يشعر بأي سرور سيحدثهم غداً عن طلقته الوحيدة والصائبة.

الليل في التايغا ساكن، خالٍ من الريح. والقمر ضائع بين الغيوم، لم يجرح الظلامَ بومضة واحدة.

حاول فيتيا طويلاً أن يغفو. وخرج مرتين ليدخِّن، فكان يتمهل في كل خطوةٍ خشيةَ أن يوقظ نيكولاي نيكولايفتش، ويضغط عل قبضة الباب بحذر، ثم ينكمش على نفسه، واقفاً فـي معطفه القصير المفتـوح، يسحب الدخان على عجَل. كان تدخين سيجارة في الصقيع الجليدي شيئاً مقرفاً.

عاد الصياد إلى البيـت الشتوي على مهل مثلما ذهـب، وبخشية صبّ لنفسه بقايا شاي فاتر.

راح الصياد يشرب الشاي، وشفتاه تهمسان من دون صوت، على طريقته وبقليل من التحريف، قصيدة للشاعر فِت[16] الذي كان يحبه من قبلُ:

طقسٌ سيئ وبرْدٌ. وأنتَ تدخِّن،

كأن كلّ ما تدخّنه قليل...

ليتك تقرأ، لكنك تقرأ

بفتور وبطء.

يزحف النهار الباهت بخمول،

والساعة على الجدار

تثرثر وعلى نحوٍ لا يطاق

بلسان لا يَكِل.

يبرد القلب على مهل،

وبالقرب من الموقد الساخن

يزحف إلى الرأس المريض

كلُّ ما هو سخيف!

وفوق بخار الكوب

الذي يبرد فيه الشاي،

شيئا فشيئاً، والحمد لله،

كأنه المساء، وها أنا أستسلم للنوم...

أراد أن يدخن سيجارة أخرى، لكنه سمع حركة نيكولاي نيكولايفتش، فخاف وأسرع إلى السرير. أغمض عينيه. رأى آنيا، زوجتَه الأولى. تذكر تلك السنة التي حدث فيها كل شيء. على الطريق إلى سلوديانكا. الكيلومتر التاسع والأربعون. أنين وصراخ. لو عاش ابنه فانكا لكان الآن في عمر ديما. لكنه ظلّ في الثالثة من عمره، كما كان. على شظايا زجاج انكسر، وحديد تحطم. وكان فيتيا سيهلك تماماً، لكن أرتيوميتش أنقذه، فأخذه معه حينذاك، ولأول مرة، إلى الصيد، فعلّمه طريقة نصب الشِّراك، وقراءة الآثار على دروب الحيوانات البرية، وجذبه إلى الحياة الجديدة الفارغة.

«يبرد القلب على مهل».

تنهّد فيتيا بعمق وارتعاش، بفم مفتوح على سعته، وأنفاسٍ موجّهة إلى السماء، كي لا يثير ضجة، ولا يوقظ أحداً من النوم. سمع لحناً. إنه لحنُ نوكتورْن الذي عزفه في ذلك المساء، بعد أن عاد من المستشفى. نوكتورْن التاسع لشوبان. عزَفه لزوجته ولابنِه القتيلين. يداه حرّتان، وأصابعه تتنقّل على المفاتيح بأناة. شريطٌ ناعمٌ من لحنٍ شفاف. نقلات ناصعة الزرقة، أجواءُ الأزرق الغامق والأرجواني. والأحمر. يتذكر الأصدقاء الذين لم يستطيعوا أن يصبحوا أصدقاء. المعشوقات اللواتي لم يستطع أن يحبّهن. إخوتَه الذين لم يعرفهم. تذكّر وحدته. بكى واثقاً أن حياته ستنتهي مع آخر أنغام البيانو التي تتلاشى. وبكى الآن أيضاً، وهو يستسلم للنوم في بيتٍ شتويٍ ضائعٍ وسط الغابات. لكن بكاءه بات بارداً وشحيحاً.

في الصباح صَفَتِ السماء تماماً. كان الجوّ يبشِّر بنهارٍ باردٍ ومشرق.

قال العم: إن ديما هو من سيحمل الفزاعة. فكانت أولُ نزوة راودت الفتى هي أن يرفض هذا الدور المعروض عليه، ولكنه فطن حالاً إلى أنه إذا لم يشارك، لن يستطيع مساعدة الغُراب الأسحم. أما إذا شارك فسوف يهزّ الفزاعة ويميل بها، سيفعل كل ما في وسعه ليكشف أن حركاتها ليست طبيعية. «الأفضل لو يرميها على الثلج!» لكن ديما كان يعرف أنه لن يتجرأ على القيام بهذا الفعل.

- ارفعْها عالياً! همس نيكولاي نيكولايفتش لابن أخيه. كان ديما يمسك بالفزاعة وراءه بعصاتين طويلتَين. وكانت رجلاها النحيلتان تتأرجحان بطريقة لا تشبه رِجلي إنسان. ضحك فيتيا بحزن وهو بجوار رفيقِ طريقٍ من هذا النوع، وراح يطرح عليه الأسئلة مازحاً، ويضربه على كتفه بافتعال. وتشمَّم تَمْغا هذا الغريب، بل ونبح عليه قليلاً، إلا أنه سرعان ما تجاوزه راكضاً إلى الأمام، في الاتجاه المألوف.

بعد كيلومترين عن المرج فكّ الصيادون الفزاعة، فوضعوها في كيس وتركوها تحت شجرة صنوبر.

مرة أخرى ذهب ديما مع فيتيا، كأنما تلقائياً، من دون كلام. سرَّه ذلك، إذ كان يخشى أن يرغمه عمُّه على إطلاق النار، لكنه في الوقت ذاته كان غاضباً على نيكولاي نيكولايفتش لأنه نسيَ تماماً ابن شقيقه. لعلّه كان يحسبه غير صالح للصيد، بل ورأى أن الفتى لا يطمح كثيراً لإثبات العكس. وكيفما كان الحال، فإن ديما كان يتمنّى لعمِّه أن تخيب طلقاته، وانزلق مسرعاً يتبع فيتيا.

مرة أخرى كرر أرتيوميتش انتظاره الصامت، كما في المرة السابقة. لقد استجدّ شيءٌ واحدٌ هو ذلك الكتاب الذي عثر عليه فيتيا. ولكن تبيّن أنه كتابٌ مملٌّ إلى أقصى حد. «كيف قرأه فيتيا؟ ذلك الفاجر!» أخذ أرتيوميتش يرغم نفسه، ويقفز من فقرة إلى أخرى، آملاً أن يقع على شيءٍ جذابٍ فيه.

«كانت الغيوم الشتوية الكبيرة تمرّ فوق رأسي باتجاه المحيط، تارة تحجب النجوم الشتوية الباردة، وتارة تجلوها، وكانت الريح تجعل الهواء قارساً كالجليد، لا أريد وأنا أخرج من البيت أن أستنشقه إلى رئتَيّ». [17]

- شيء منفِّر. همس أرتيوميتش، ووضع الكتاب جانباً.

«لماذا هذا كلّه؟ خرجتَ إلى الشارع، وها هو الصقيع. استنشقِ الهواء بالعافية، لماذا الكتابة عن ذلك؟ حسناً، الكتابة أمرٌ جيد، فماذا عن القراءة؟ لماذا تقرأ عن الهواء الشتوي، إذا كان بإمكانك استنشاقه؟ غباء».

ولمّا ارتاب بأن الغُراب الأسحم سيغامر ويأتي في الدقائق الأولى، أجاز الصياد لنفسه البحث في الخزانة عن كتابٍ أمتع. فكان عليه أن يختار اعتباطاً، لأن المجلدات هنا ينقصها الغلاف والصفحات الأولى. فقد جاء بها نيكولاي نيكولايفتش إلى هنا، من دون أن يفكر، طبعاً، بالقراءة، بل فكّر بورق التواليت، الذي قد ينتهي في لحظة غير مناسبة إطلاقاً. تضاحك أرتيوميتش إذ تذكر أنه ظل في قريته سنوات طويلة يذهب إلى التواليت مثلما يذهب إلى المكتبة، وحتماً يقرأ الصفحة قبل أن يدعكها ثم يستخدمها كما يجب. لقد عوّدته أمّه على ذلك. فقد كانت تريد أن يصبح ابنها رجلاً مثقفاً وواسع الاطلاع.

كان الكتاب الثاني غبياً أيضاً، مثلُه مثل الأول، لكنه كان، على الأقلّ، أقل إضحاكاً.

«أنا عشيقتك آليو، وهنا يكمن عاري كلّه، كان عليّ أن أموت قبل أن أُأْتَمِن قلباً نبيلاً مثلَ قلبك، على امتلاك قلب، كان قد أوشك كلُّ شيء فيه أن ينطفئ».

غصّ أرتيوميتش بالضحك حتى الدموع. ولو سأله أحد ما عن ذلك، لَما استطاع تفسير مرحه، ولكنْ كلما كانت الكلمات أكثر فخامة، كان الامتناع عن الضحك أكثر صعوبة. واضطر أن ينحّي

الكتـاب جانباً، وإلا سـمع الغُراب الأسحمُ قهقهاته.

قرر الصياد أن يُؤنس نيكـولاي نيكولايفتش فـي المساء باقتباساتٍ مبتذلةٍ. بل وأعدَّ نكتة عن اضطرارهم للبحث عن بديلٍ لورق التنظيف في المراحيض.

لم ينجح بإلهاء نفسه بالقراءة، وكان عليه أن يراقب مطوّقاً بالضجر.

بحلول الساعة الثانية ظهراً تذكر وجبة الإفطار. لم يكن أرتيوميتش يستطيع الخروج من البيت، ولم يشأ أن يستخدم الدلو. فكان عليه أن يصبر، وهو يشتُم بصوت خفيض:

«طائر شيطاني...»

شعر الصياد بأنه عبثاً سيُمضي في الكمين هذا النهار أيضاً. وراودته فكرة: «ربما أرشّ سُمّاً على اللحم، - خطر له، وقلّب الطلقات بين كّفيه. دعْه يتسمم. ولكن... من أين تأخذ السم هنا؟ بل وأن أسمِّم اللحم كله؟ هذا شرفٌ كبير عليه».

نمّلت يداه وظهره من عدم الحركة. تمنّى أن يركض، أن يكسِّر الخشب حطباً، أن يفعل أيّ شيء إلا الجلوس سُدى على كرسيّه الخشب.

ثقُلَ بطن أرتيوميتش، وانتفخ بمغصٍ كريه. تكدَّر، وتنهّد، وأشبع يديه حكّاً. راح يتلفّت إلى الدلو الفارغ. وحاول ثانية أن يقرأ الكتاب، لكنه سرعان ما دعكه ورماه على السرير.

كان ديما في هذا الوقت يتغدّى مع فيتيا بالقرب من النار. وكان ما يزال محرَجاً من كلامه أمام الجميع عن أعقاب السجائر في المرمدة. الآن يفهم أنه ارتكب حماقة. إذ إنه خيرٌ للغراب لو أن فيتيا بالضبط من ظلّ يرصده. وعلى أملٍ بأن يكفِّر عن ذنبه أمامه، شرع ديما يطرح عليه كثيراً من الأسئلة عن التايغا، والحيوانات التي تعيش فيها. فانتعش فيتيا، وراح يجيبه، من دون إظهار أي أثر للإهانة، ويسترسل بالحديث إليه من دون أسئلة.

وصف كيـف أن السـبع الأمريكـي المطارَد يستلقي على ظهـره ويرفع قوائمه:

- قد تظن أنه قد استسلم، فخذْه ساخناً، ولكن لا تنخـدع. فأخطر ما يكون السبع الأمريكي، هو عندما يستلقي على ظهره. إنه يمزّق بطن الكلب بمخالبه حين يهجم عليه. فتندلق أمعاؤه فوراً. لا بدّ من إطلاق النار على السبع حالاً. ثم ينبغي الانتظار إلى أن ينفُق تماماً. إنه يستطيع، حتى وهو يموت، أن يمزق الإنسان. إنه قطة. هل كنت تعلم أن أهمّ سلاح القطط المنزلية هو الضرب بقائمتيها الخلفيّـتَين؟

هزَّ ديما رأسه.

تحدث فيتيا بشغف عن كيفية استدراج الثعلب الحذر، واجتذابه بمحاكاة زعيق أرنب جريح، واقتفاء أثر الأيائل على الثلج، والبحث عن سمّور في درب ترابي أسود.

- حسناً، إذا كان الحيوان غبياً، يمكن استغلال هذه الإرشادات. وماذا عن المرموط؟

- مَن؟ لم يفهم ديما.

- المرموط. أو شبيهه الغوفر. أعني، ما اسمه... المرموط! أسوَدُ القبعة المرموط.

- نعم. أومأ ديما برأسه، وهو لا يفهم جيّداً، عمّن يدور الحديث.

- إنه خوّاف حذِر، ولكنه غشيمٌ إلى حد الغباء. فالدبّ عندما يطارده، يحطِّم كلّ الجحور، أمّا الإنسان فلا يفعل ذلك. كان أرتيوميتش يحدِّثنا كيف علّق قبعةً من فراء المرموط على عصا، واختبأ. يخرج أسوَد القبعة من جحره وينظر. يرفع فيتيا يديه قريباً من صدره، يمدّ رقبته، يقلِّد المرموط: - ماذا هناك؟ يظنّ أنه مرموط عالق. نخَر فيتيا. يتجمّد في وقفته. ذاهلاً. لا يكفّ عن التحديق بالقبّعة. عاجز عن الفهم. غشيم. غارقٌ في التحديق حتى لا يعود يسمع أن هناك من يتسلل نحوه من الخلف. يكاد يلتصق به ويطلق عليه النار. قال فيتيا بعد صمتٍ قصير: - نعم... لا يكفّ عن التحديق بالقبّعة. كأنه مسحور.

لم تستهوِ هذه القصصُ ديما، فحاد بنظره عنه، لعلّ الصياد يصمت، ولا يعود إلى الحديث عن الصيد. عبثاً خطط لهذه المصالحة. لم يرَ ديما في حياته كلِّها السبع الأمريكي، ولا المرموط، لكنه أشفق عليهما.

خرج بعد استراحة الغداء، وفكر ثانية بهذا التناقض العجيب في أن فيتيا، وأرتيوميتش، ونيكولاي نيكولايفتش يعرفون الطبيعة وسلوك الحيوان معرفة جيدة، ولكنهم يقتلون كل ما يصادفونه في طريقهم من حيوانات، غيرَ آسفين.

«لعلّهم أيضاً يحبّون الطبيعة على طريقتهم الخاصة، لكنهم كانوا يحبونها لأجل أنفسهم، مثلَ السيارة أو البيت. فالطبيعة بحد ذاتها لا تعنيهم، وما هي في نظرهم أكثر من ديكور داخليّ بديع. أو أنها ليست ديكوراً داخليّاً؛ لعلّ هذه الكلمة ليست الأنسب. إنها تشكيل العالم من حولنا. يعجبهم أن العالم يتشكل من جبال، وأشجار، وطيور، وحيوانات. يطيب لهم أن يستمتعوا بالنزهة في هذا العالم. لا أكثر. يظلّ الأهمّ في نظرهم، هو الإنسان. تتساوى في الحب عندهم الجبال والجدران، الأشجار والخزائن، الحيوانات والمزهريات، أدوات الزينة والتماثيل الصغيرة. يعدّون كل هذه الأشياء جميلة. يتغنّون بها. وعند الضرورة يستخدمونها. يسلخون فراءها، ينتفون ريشها، ويقطّعون لحمها.

لعلهم أيضاً بالطريقة نفسها يحبون الناس الآخرين، كما يحبون ديكوراً داخلياً في حياتهم، جميلاً، أو مريحاً فقط. الناس في نظرهم سيّارات أطفال ميكانيكية تلامس المشاعر، تُسلّي بالثرثرة. إذا

تعطلت واحدة من تلك السيارات يمكن تبديلها بأخرى دائماً. وهذا هو كُلُّ الحبِ.

هكذا يعيشون، ديكورات داخلية لبعضهم بعضاً».

شغلت هذه الأفكار ديما، فتخلف كثيراً عن فيتيا، وكان عليه أن يسرع الخُطى. لكن أفكاره لم تهدأ، كأنها غديرٌ يبحث من زمان عن طريق إلى وادٍ جافٍ، وقد اجتاز العقبات أخيراً، وتدفّق في مجراه المهجور لا يصمد أمامه شيء. ومرة أخرى أبطأ ديما خطاه، ظناً منه بأنه عاجلاً أم آجلاً سيلحق بالصياد، ما دام يتوقف أحياناً لينصِب الفِخاخ. ثم إن المشي على مهلٍ يساعد على التفكير بحرية أكثر.

«عمّي كوليا على حق. إن أمّي تحب الحيوانات. فتشفق على القطط والكلاب الشاردة، وفئرانها في المختبَر. ولكنها في الوقت نفسه ترتدي معطفاً من فرو السمّور، وتأكل لحم العجل والغنم. فمن أين هذا التناقض؟ وما هو تفسيره؟

هل أمّي أيضاً تحب الطبيعة من أجل نفسها؟ ولكن المسألة هنا لا تكمن في الديكور الداخلي، بل في شيء أكثر تعقيداً.

إنها تحب الحيوانات، لأنها تذكرها بالإنسان. وتحتضن القطط مثلما تحتضن طفلاً أو دمية، بل وتقبّلها. إلا أنها لا تفكر أبداً بأن تحبها كما يحب الحيوان الذي يشمّها، ويمشطها بلسانه. أمّي تنظر إلى الحياة نظرتها إلى القصص والمغامرات المصوّرة، إلى السخرية من الحياة البشرية، وهذا سرّ حنانها. ترى الجروَ طفلاً يحتاج إلى مُعينٍ، ولهذا ترعاه. أمّا الأفعى فشيء آخر، ولا تحظى بالشفقة. إنها لا تحب من لا تنظر إليه كإنسان. بالأحرى، لا تتعامل معه كما تتعامل مع الحيوانات في الواقع.

من يخطر على باله أن يكتب حكاية عن الصرصور أو الحنش أو... عن دودة الأمعاء؟! لا أحد. أمّا أن تكتب عن النملة، والثعبان، ودودة المطر، فمرحباً بك! هذه تعجبهم، لقد أضفوا عليها صفات البشر. «له رِجل، خذْه إلى البيت»، هذا طريف. أما الأفعى، فتلك حشرة غبية، وبلا روح. هي أيضاً كائنٌ حيّ، ولكنه ليس رائعاً ومسلياً كثيراً. تعتقد أمّي أنها تحب الحيوانات، أما في الواقع فإنها تحب فيها كل ما يذكرها بالإنسان. لأن الإنسان لا يحب حباً حقيقياً إلا نفسه، ولا يتباهى إلا بنفسه. وإذا ما تباهى بشيء آخر، كقوانين الفيزياء مثلاً، فإنه في حقيقة الأمر يتباهى بقدرة عقله على صياغة هذا القانون ومعرفة قيمته. الإنسان يتباهى بنفسه، زاعماً أنه يتباهى بشيء آخر... انظرْ ما أشطرَه!».

تضاحك ديما ساخراً، ونظر بشكٍّ إلى الأمام، إلى زلاجات فيتيا. بهذه الأفكار كان يمكن أن يضلّ الطريق، ويضيع في هذه الغابة فلا يخرج منها حتى المساء.

«يعني، لا عجب في أن تتلذّذ الأم بأكل أفخاذ الدجاج، ثم تتألّم عندما يقتلون في أفلام الكرتون دجاجة أمام أنظار صيصانها، فتبكي الصيصان فوق جثتها، وتزعق من الجوع والخوف. فيما الأم

تأكل دجاجة بسيطة. كل شيء كما قال أرتيوميتش: المنتصر يأكل المهزوم. لقد انتصرنا في الطبيعة، وها نحن الآن نأكل عبيدنا: الأبقار، والأغنام، والدجاج، أمّا هي فتبكي على الإنسان: وعلى آلامه، التي تراها في الحيوانات. أجل...».

هزَّ ديما رأسه حزناً، فقد بدأ يشعر بالتعب من تيار أفكاره المفاجئ. وانقلبت فرحته الأولى همّاً ثقيلاً، وحزناً نفّاذاً لم يعرفه من قبل.

«أما من لا يحب الناس، ويعيش مع الكلاب والقطط، فإنه في الواقع، مثلُه مثلُ الجميع، لا يحب إلا الإنسان، يشتاق إليه، يشتاق إلى العِشرة السليمة معه، ذلك أنه هو نفسه قد انكسر في شيء ما، ولم يعد يعرف كيف يصير إنساناً بالمعنى الحقيقي. أو إنه أُحبِط وفقد ثقته بالمحيطين به، ولضعفٍ فيه يختبئ في مسرحه، حيث علّق على كلِّ كلبٍ قناع إنسان، أو بالأحرى صورته المبسّطة. إذ إنه لا ينبح معها، بل يتحدث ويتواصل معها مثلما يتواصل مع الإنسان، وأكثر ما يبدي اللطف حين يتمكن كلب أو ببغاء من قول شيء مفهوم، يشبه كلام البشر...

وأنا؟ هل أحب الحيوانات؟ وإذا كنت أحبها، فأيّ حب؟»

لم يعد ديما يستطيع الإجابة عن هذا السؤال. فقد أضناه التعب. وراحت أفكاره تضجره بتكرارها، وتمضي به بعيداً إلى ذكريات متشابكة، ثم هدأت أخيراً. كان عليه اللحاقُ بفيتيا.

مرة أخرى عاد ديما إلى البيت الشتوي معكّر المزاج، إنما كان ينتظره هناك خبرٌ مفرِح، فالغُراب الأسحم لم يأتِ. وها قد أضاع أرتيوميتش، مثلَ فيتيا، يومين من أيام الصيد. لا الفزاعة أجادت شيئاً، ولا الصيادون ظفروا بشيء.

الفصل الحادي عشر



كان البقاء في البيت الشتوي كريهاً. نظر ديما بنفور إلى جلود السمّور، وإلى البنادق، وإلى الفِخاخ المنظَّفة والمهيّأة للصيد غداً. وبنفور لا يقلّ عنه نظر إلى الصيّادين أنفسهم.

وباستغراب تذكر مدى سعادته بالوصول إلى هنا قبل أسبوعين. فلم يسبق له أبداً أن يعيش تغيرات على هذه الدرجة من المفاجأة والجموح في مشاعره. لعلها شديدة الجموح. لقد تعب ديما. وكان هذا التعب جديداً عليه. لم يكن موجوداً في رِجليه، ولا في يديه أو في الظهر. لم يكن تعباً عضوياً. «هل يحدث هذا؟»

أمسى البيت الشتوي للفتى شرنقة كان يجب أن يعود منها فراشة، إنساناً خُلِق من جديد. هكذا خُيّل له، على الأقل. لم يكن يعرف بعدُ ما هي الأفكار التي تنتظره في العالم الجديد، لكنه تصور برعب أن هذا كله أمكن ألا يحدث، لو أنه مرض، لو أن أمَّه كانت أكثر إصراراً، لو أن عمَّه لم يقرِّر أن يأخذه إلى التايغا...

لقد تحقق هذا التحول بعسرٍ، وأجبره على الانتظار، ولكن ديما كان موافقاً على مزيد من العذاب في سبيل أن يكتمل هذا التحول حتى النهاية، حتى آخر ذرّة. فقد كان يشعر بقدْر كبير من الحرية والانطلاق على عتبة العالم الجديد.

أمسِ كان يريد العودة إلى البيت بكبسة زرّ، في لمح البصر، أمّا الآن فقد اعتزم العيش بين الصيّادين حتى اليوم الأخير من الصيد. لقد شغف بفكرة التضاد الخفي. وكان عليه أن ينكّد عمّه بإزعاجات صغيرة. فقد ينقذ ذلك حياةَ سمّور أو سنجاب. ابتسم الفتى إعجاباً بهذه الفكرة.

عكّر مَكر الغُراب الأسحم مزاجَ الصيّادين، ولم يولوا ديما أي اهتمام. فاستغلّ ذلك. وأول عمل قام به هو وضعُ حطب في الموقد مع علبة سجائر مختومة. «لكي تتهدّل أذنا فيتيا حقاً من الضجر». استنتج أن الصياد إذا بقي في الأيام الأخيرة من دون سجائر سيكون متوتراً، عصبي المزاج، وهذا يعني أنه سينصب الفِخاخ بعناية أقلّ. «غداً سأحرق علبة سجائر أخرى». ودقَّ قلبُه بقوةٍ جعلته يرى غلالة مشوبة بالحمرة تمرّ أمام عينيه. ماذا سيفعل الصيّادون إذا انتبهوا إلى هذا الأذى الشرير؟ اضطرَّ لأن يتنفس عن طريق الفم طويلاً وعميقاً. لقد أحس ديما بأنه فدائي وراء خطوط العدو.

استلقى على السرير وهدأ. بالكاد تمكن من التوقف عن الضحك، فقد كان حرق السجائر عملاً صبيانياً وغبيّاً جداً. غير أنه لم يشأ أن يوقف اللعبة التي بدأها.

تطوّع بالذهاب لإحضار الثلج لإعداد الشاي، وحين عاد إلى البيت رمى كتلة من الثلج في كلٍّ من فردتَي حذاء أرتيوميتش. «سيتأخر غداً لتجفيفهما. وقد لا ينتبه فيبتلّ جورباه. وعندها سيمرض، ويظل حتى نهاية الصيد يتقلّب في الفراش وحرارتُه مرتفعة».

الضحية الأخيرة كان عمّه. فقد خطط ديما على تفتيت قطعة من الجليد في بندقيّته. «سيذوب الآن، وغداً سيتجلّد. وعند الحاجة لن تستجيب البندقية له».

لم يعرف ديما ماذا يفعل بتَمْغا. كان يستطيع أن يعطيه شيئاً مسهِّلاً، ولكن من أين تأخذه في الغابة؟ خطر له أن يخلط له زجاجاً مكسّراً مع عصيدة الشوفان، إلا أنه خاف من هذه الأفكار، وفهمَ أنه حينها سيقتل تَمْغا نهائياً. وقد، تملّكه الرعب إذ أدرك أنه قد يذهب بعيداً جداً في لعبته هذه، فقرر أن يتريث قليلاً قبل المضي في التخريب.

- وما العمل الآن؟ - سأل أرتيوميتش بعد العشاء.

كان يروح ويجيء في البيت، من السرير إلى النافذة وبالعكس. يمد يديه، يحرّك رِجليه. وكان مسروراً لأنه صار بوسعه أخيراً أن يضجّ ويتكلم بصوتٍ عالٍ.

- ومع ذلك، فإنه لا يحسن العَدَّ.

- إنه يعدّ. تمتم نيكولاي نيكولايفتش.

- وكيف عندئذٍ...

- ببساطة. إنه يَعُدّ أفضل منك. لكنه لم يصدِّق الفزاعة. لقد فهم أنها ليست إنساناً. لأنه كان ينبغي أن تُحمَل بشكل طبيعي، لا أن تؤرجح مثل الليفة. ألقى العم نظرة شريرة إلى ديما.

هذَيان. نفض أرتيوميتش يده. أنت ترفع من شأنه. فتجعله يُحسِن العدّ، ويعرف الفرق بين الفزاعة والإنسان. ويقضي حاجته، ربما، مجازاً على شكل استشهادات من شعر بوشكين.

- دعْ عنك هذا الـ بوشكين. تنهّد فيتيا.

- لا تعاتب الآخرين في شيء تفعله أنت. همهم أرتيوميتش: رأيت سخافاتك. نفض الصياد بقية من كتاب.

- أنت نفسك سخيف. لا تفهم...

- يكفي! ضرب نيكولاي نيكولايفتش بكفه على الطاولة. قَرَفْتونا.

صمت الصيّادان، ومدَّ أرتيوميتش لسانه لفيتيا خلسةً. أما فيتيا فزمّ شفتيه، وحك صدغه بإصبعه.

كان نيكولاي نيكولايفتش ينكش سقف الطاولة بظفره، فتنهّد وقال:

- عندي فكرة أخرى.

- أن نترك الآن تَمْغا في الكمين؟

- وربما نتركه بسلام، عموماً؟ سأل ديما. وتعجّب من أنه قال هذا الكلام بهدوء، ومن دون اضطراب.

كان حطب التنّوب ينفث دخانه في الموقد بهدوء. وكانت انعكاسات الضوء الحمراء تنهمر على الأرض، وترتسم ظلالاً مفلطحة على الرفوف القديمة القاتمة. واسودَّت الجدران الخشبية بشقوقها العميقة المليئة بالغبار. وبالكاد ترى العين الخطّاف الحديدي المعلّق بالسقف، كانوا في الماضي يثبّتون عليه السراج. «لماذا لم يعودوا يثبّتونه هناك الآن؟» تساءل الفتى في سره، وبطرفة جفن حطمتْ هذه الفكرةُ القصيرة، الطارئة هدوءه، مثلما تفعل ذبابة طائرة بأساس بيت من كرتون. لم يسمح ديما لنفسه أبداً بأن يجادل عمّه.

- ماذا؟ عبس نيكولاي نيكولايفتش.

- نتركه بسلام.

- من؟

- الغُراب الأسحم.

- ولأي سبب؟

هزَّ ديما كتفيه:

- لقد بيّن لنا أنه ذكي. وهذا يعني أنه جدير بالحياة، أم لا؟ - وضغط الفتى كفّيه على ركبتيه. وجعله الاضطراب يبلع ريقه مراراً.

- ليس جديراً إلا بشيء واحد، بجنازة لائقة.

- لكننا نستطيع أن ننزل اللحم عن الحبل. وانتهى الأمر. عندها، سيتوقف عن المجيء.

- أنت الأذكى، أم ماذا؟

- لست أنا من استغفله الغُراب الأسحم. ردَّ ديما باستياء، وفي الحال خاف من هذه الكلمات. وشعر بالاشمئزاز من خوفه.

- ماذا قلت؟ شدّ العم على قبضتيه.

صفر أرتيوميتش وغمز بعينه لفيتيا، وأملاً بتسوية الخلاف الناشئ، خاطب ديما قائلاً:

- ليس كل شيء بهذه البساطة. إذا أنزلنا اللحم عن الحبل، سيأتي الغراب مرة ثانية. أنت تعلم أن الغربان تعيش طويلاً.

- لا تتدخلْ. لوّح نيكولاي نيكولايفتش بيده. لماذا أخذتَ تشتكي؟ نظر إلى ابن أخيه. اجلس واسكتْ. ليس شغلك. لا تتدخلْ.

- إذا كان ليس شغلي، لن أقدِّم مساعدة بعد الآن. تكلّم ديما بهدوء كي يخفي ارتجافه.

- ماذا؟

- لن أساعد في القبض على الغُراب الأسحم، اقبضوا عليه أنتم.

- تساعد؟ قهقه العم من دون ابتسامة.

مع كل كلمة يقولها كان يغدو أعلى وأقوى. وانكمش ديما على نفسه. لكنه أرغم نفسه على النظر مباشرة في عيني نيكولاي نيكولايفتش.

- انتظار المساعدة منك، مثل انتظار الحليب من الثور.

- طوِّل بالك. تدخل أرتيوميتش ثانية.

- لا تتدخل!

كأن فيتيا لم يكن يسمع الحديث. ظل ينظف أظافره بعناية، ويلقي بالوسخ المتجمع إلى الأرض.

كان الجو في البيت حاراً جداً، وديما يريد الهرب إلى الخارج، ليفتح صدره للعاصفة الثلجية، ويطرد من نفسه كل ما يقلقه.

- يجب أن تُجلَد كما ينبغي، لتخليصك من حماقة المدينة. ربما تتعلم الكلام بأدب.

- أنت لست أباً لي. فأنا نفسي أستطيع...

- أنت لا تستطيع شيئاً! تظن أنني لم أرَ، كيف... حرَفتَ البندقية قصداً؟ أشفقتَ عليه، أليس كذلك؟ وأنت أيضاً لستَ ابناً لي. مع ابنٍ مثلك، لا يبقى للمرء إلا أن يشنق نفسه. بسبب أمثالك وشكواك، يكثر هؤلاء السُّفْلة المنحطّون. تظن أنني لم أرَ كيف سددت إلى السمّور؟ كنت تنظر إليه بعينَي امرأة: «إنه حي، إنه حي». زعق مقلّداً صوت ابنِ أخيه. جاء يتعلّم الصيد. ذكي...

- دعِ الغُراب الأسحم بسلام. نهض ديما عن السرير. لم يعد يستطيع، بل ولا يريد أن يتمالك أعصابه.

- اجلسْ. ردَّ عليه نيكولاي نيكولايفتش بهدوء.

- اتركْه. ردّ ديما بصوتٍ قوي، كان يرتجف.

- اجلسْ، أقول لك!

- دعه! صرخ ديما. وانهمرت الدموع من عينيه.

- وتصرخ، أيها الأحمق؟!

نهض نيكولاي نيكولايفتش بحدة، فمال الكرسي الخشبي خلفه، وسقط على ظهره بقوة.

- اتركه! وحجب عينيه غبشُ غلالة حمراء. لم يوقف دموعَه شيء. ولم يعد ديما يرى أرتيوميتش ولا فيتيا.

- صَهْ (اسكت)، لقد علّق لسانك، تعيد الكلمة نفسها... هل أنت معتوه؟

- اتركه! صرخ ديما إلى حد الألم في حنجرته. أراد بصرخته أن يكشف عن كل ما في داخله. أن يقطّع، أن يمزِّق، أن يخصي، وأن يستأصل نفسه من جذورها. وفي نوبة هذا الهياج القاهرِ والحقدِ، كان ينتفض في مكانه، ولا يكف عن الصراخ: - اتركه!

- لا تزعق!

- اتركْه! شرع ديما يتضرّع إليه، ويرغم نفسه على نطق كلمة أخرى، ولكن لم تخرج من ركام أفكاره كلِّها إلا هذه الكلمة وحدَها: - اتركْه.

خطا العم خطوة سريعة. دوّت صفعة قوية. لقد ضرب نيكولاي نيكولايفتش ابنَ أخيه بكفه. لم يتسنّ لديما أن يتفادى الصفعة، فترنّح، وتعثّر، وسقط. تشبَّثت كفّاه بالأرض، بالغبار ونثراتِ الخشب.

أطلق تنهّدات مشوّشة، وتسارعت أنفاسه ثقيلة.

انقطعت نوبةُ جنونه. وبقيَ على خدّه الألمُ والإهانة. كان ما يزال يرتعش.

رفع نيكولاي نيكولايفتش الكرسي الخشبي وجلس عليه. لم ينظر إلى ابن أخيه.

- وماذا بعد؟ سأله أرتيوميتش.

تصرّف الصيّادون وكأن شيئاً لم يحدث.

- عندي فكرة.

- أن نعيد الفزاعة، بشرط المشيِ معها طول النهار؟ تضاحك أرتيوميتش بارتياب.

- انسَ الفزاعة. هنا يمكن التصرف بطريقة أخرى... كان العم يتكلم ببطء، يتوقف أحياناً، وفي الوقت نفسه يدعك جبينه بأصابعه: ثمة صيغة أكثر تشويقاً.

- وهي؟

تحدّث نيكولاي نيكولايفتش عن خطته، وهو يتضاحك. ظلّ أرتيوميتش وفيتيا صامتين، يتبادلان نظرات التعجب. كانت الخطة غير عادية.

نام الصيّادان ليلتهما مضطربين. تساورهما الخشية من أن تكرِّر الخطةُ الجديدة مصيرَ سابقاتها. كان فيتيا يتقلّب في سريره، ويفكر بأن سبب القلق هنا ليس الغُراب الأسحم نفسه، بل ما أبداه من حنكة مفاجئة. ما كان نائماً وراء الباب الآن ليس التايغا الموحشة والمعادية، بل التايغا العاقلة ولو حتى قليلاً. ومع أنه سبق لفيتيا أن صادف طيوراً ووحوشاً ذكية، فإنه لم يدخل معها في مواجهة مضنيةٍ إلى هذا الحد. فالذئاب، والثعالب، وحيوان الوشَق كانت بالطبع، ذكية، ولكنْ ذكاءً ضحلاً، قبيحاً، مثل أطفال مشاكسين. لم يكن بوسعك أن تتحدث عن عقلها إلا مازحاً بتسامح. أمّا هنا فأمامك غرابٌ نكرة. «يا لها من حكاية».

سمع ديما حديث الصيّادين. عرف ما ينوون، وفهم أنه لن يستطيع منعهم.

«أن أُلقي بالطلقات في الموقد. وليتصدّع كلّه. أن أهشّم النافذة. أن أحطّم الفِخاخ. أن أحرق أكياس النوم. أن ارتكب أيَّ فعل من أجل أن ينهوا هذا الصيد. إلا أن السيارة لن تأتي قبل الموعد المحدد لها... حتى إني لا أعرف إن كان لدى العم هاتف ما. هنا لا بُدّ من جهاز فضائي، مع هوائيّ....»

كان الفتى واثقاً من أنه لن يستطيع النوم بعد كل ما حدث، وسيظل يتقلّب طول الليل في ما يشبه النوم، لكنه سرعان ما غفا بلمح البصر، ما إن أغمض عينيه...»

رأى في نومه أحلاماً متقطعة. ولمّا استيقظ لم يتذكر إلا أنه تكلم مع الغُراب الأسحم، وأنه في أثناء الحديث رفع البندقية وأطلق عليه النار، لكنه لم يُصِبْه. ظل الغُراب الأسحم واقفاً في مكانه، وواصل الكلام. فأطلق ديما عليه النار ثانية، وأخفق من جديد. كان الغُراب الأسحم عنيداً في أقواله، يبدو أنه كان يطلب شيئاً ما، يحاول أن يشرح شيئاً ما، لكن ديما لم يفهمه، وواصل إطلاق النار عليه. ثم خفض بصره ورأى يديه الثقيلتين، المنتفختين بفقاعات الماء. رأى أصابعه الغليظة يكسوها شعر أصهب، وأدرك أنه هو نيكولاي نيكولايفتش. فخاف من نفسه. ورفع نظره. لقد تغير كل شيء. كان المرج بين الأشجار مفروشاً بمئاتٍ، بل بآلافٍ من الحيوانات الممزقة البطون. وأذابتِ الثلجَ سيولٌ من دمٍ أسوَد. وكانت الأشجار المحيطة يابسة، كأنها محروقة. عديمةُ الأغصان، ميّتة. خلف ظهره البيت الشتوي وقد تعفّن، ومال إلى اليسار. في النوافذ المهشّمة تراءت غرفةٌ باهتة، مليئة بسَقْط المَتاع. ليس فيها أحد. وحده كان الغُراب الأسحم واقفاً على شجرة الصنوبر، ينظر إلى ديما. كان الآن صامتاً. يُثقِل عليه الشعور بوحدته العميقة اليائسة. كان يعلم أن الكوكب كلَّه على هذه الحال. الأشجار ماتت، مخلّفةً للنظر هياكلَ عظمية لِما كان لها ذات يومٍ ذيولٌ منفوشة. وتحولت الوحوش والطيور إلى بقايا دمٍ يابس. ظلَّ ديما منفرداً مع الكون البارد، الذاهبِ في أعماق نفسه. ضائعٌ وسط طيف من نجوم تتلألأ وتنطفئ. واختفى الغُراب الأسحم، واختفى معه كلُّ ما يذكِّر بعالَم ضاع. أراد ديما أن يستيقظ، أن يقتلع نفسَه من هذا الكابوس، إلا أن حلمه لم يتوقّف.

اختفت جثثُ الحيوانات الصغيرة، والغابةُ الميتة. وطوّقت ديما صحراءٌ من الإسمنت المسلّح. وصفائحُ ساخنة كالنار يغطيها جِبْس أبيض. وفي مكان ما برزت براغي تثبيت هيكلٍ اسوَدَّ لونه، وأقواسُ حديد محنيّة.

وتراءت من بعيد عربات صغيرة من حديد الزهر، وسككُ قطارات جُمعت عشوائياً وكأنها أعدّت لنارٍ عظيمة من أغصان وأعواد يابسة.

كان بعض الصفائح ملقى على الأرض متغيراً، ويظهر عبر الشقوق أن تحتها صفائحَ من النوع نفسه.

وكان الأفق من الإسمنت أيضاً، لكنه مصبوغ بالأصفر. وكانت السماء من الإسمنت. والهواء جافٌّ وخشن.

مدَّ ديما يده، ورأى كيف تتساقط على راحة كفه المبسوطة ندف ثلج كالرغوة.

كان وحيداً.

والأخيرَ من الناس.

وهو نفسه هزيل الجسم، جافٌّ كلّه، ضعيفٌ، وورقيٌّ تقريباً.

كان كل شيء بالأسوِد والأبيض. وقد اختفت الألوان منذ زمن بعيد.

ركع ديما على ركبتيه. كان يعلم أنه لا سبيل أمامه. لا يستطيع العودة إلى العالم السابق.

إنك لا تعود إلا إلى ما تتذكره. وقد نسي ديما حتى التايغا، وأزهارَ الربيع، وطيورَ الدغناش الحمراء الصدر. لعل كلّ ذلك لم يكن موجوداً أبداً. ولم يكن موجوداً شيء سوى الصحراء الإسمنتية المحيطة. والوحدة الرمادية الصَّموت.

الفصل الثاني عشر



في الصباح غسل ديما وجهه بالماء البارد. ونسي ما رأى من أحلام في الليل.

تناولوا طعام الفطور صامتين.

ارتعد الفتى عندما ربت نيكولاي نيكولايفتش على عنقه فجأةً.

- أنت... عبثاً غضبتُ عليك. قال عمّه بابتسامة هادئة. أنت تعرف، مع هذا الغُراب الأسحم... عموماً، لا تأخذْك الظنون. هذا كله من شدة الغضب. وكلُّ ما قلته ضدَّك يخالف رأيي فيك. تحدُث أشياء كثيرة في الحياة. غداً سنذهب معاً، وسيكون كل شيء على ما يرام. ستحصل على السمّور الذي تريده، وكلّ هذا ... سننساه. فكّر العم قليلاً، كمن لا يعرف أيّ كلمات يختار، ثم أردف: - وأنت انتبهْ، لا تفقِد أعصابك بهذه الطريقة. لعلها نوباتٌ تصيبك؟

ابتسم ديما وأمأ برأسه. وفي الحال لام نفسه على ابتسامته وعلى الإيماء برأسه، إلا أنه لم يسبق لعمِّه من قبل أبداً أن تكلم معه بهذا الدفء، أو أن اعتذر منه. فقد أراد أن يُفرِحه، وأن يمنحه حجة ليفتخر. وعموماً، لم يكن نيكولاي نيكولايفتش إنساناً سيّئاً، ولم يكن يريد لديما إلا الخير. كل ما في الأمر هو أنه كان يفهم الخير على طريقته، ويفعله وَفقاً لمعرفته. إنه لم يصفعه بدافع الغضب، وإنما لأنه احتار، ولم يعرف كيف يتصرّف معه.

ابتهج ديما، بل ووافق على أن يساعد عمّه. وعلى كل حال، لم يكن مطلوباً منه الكثير.

- وماذا نفعل؟ سأله أرتيوميتش.

- هيّا، فلنبدأْ. أومأ نيكولاي نيكولايفتش.

ارتدى الصيادون لباس الصيد، وشرعوا يتزلّجون بين البيت والغابة بالتناوب، جيئة وذهاباً. في البداية ذهب نيكولاي نيكولايفتش وحدَه، وما إن عاد حتى حلّ محلّه فيتيا. ثم اقتفى أثره أرتيوميتش.

كان الصيادون يعودون ومعهم أغصان، يقطعون شجيرات صغيرة يكدّسونها في الموقد مثل أكوام من الثلج. كانوا يأخذون زلاجاتهم ويلقونها في الطريق، ثم يعودون ويأخذونها من جديد. وأبدى ديما نشاطاً ملحوظاً، فلهث وأدلى بنتيجة مروره على سبعة فِخاخ في طريق الذهاب والعودة. ومسح جبينه العرقان. وهدّأ أنفاسه، ثم ضحك بصوت خفيض. فقد بدا له ما يفعلونه مضحكاً أكثر من السير مع الفزاعة. سار ديما على مهله، لم يستعجله أحد. وأخيراً، ظلّ وحده على أطراف الغابة، ظنّاً منه أنه حتى من دون هذا الفعل قد ساعد الصيادين أكثر مما أراد. فهو، برغم تصالحه مع عمِّه، لم ينسَ شجار الأمس، ولا ما سبقه من أفكار.

بينما كان نيكولاي نيكولايفتش يغادر الغابة، نظر إلى رؤوس الأشجار البعيدة، علّه يرى الغُراب الأسحم هناك. فقد كان مقتنعاً بأن الطائر يراقبهم الآن بقلق وهم يتراكضون.

بالأمس قرر الصيادون تشويش المشهد بحركتهم الدؤوبة المتقاطعة.

- دعْنا نعتقد بأنه قد تعلّم. لنكنْ أذكى منه. فلهذا نحن بشر. قال نيكولاي نيكولايفتش. إنه لا يحسن الجمع والطرح. وكلما زدنا من الركض جيئة وذهاباً، ازداد غليان دماغه، وقويَ هياجه. إذا تهيّب

غداً، وقرر ألاّ يجازف بالمجيء، أعدْنا الكرّة أيضاً. أكيد أنه لن يعود مرة أخرى. لقد أمضى كل منكما يومين وهو جالس يراقب مجيئه، فلِمَ لا أجلس أنا كذلك؟

- أنت ستراقبه؟ تعجّب فيتيا.

أومأ نيكولاي نيكولايفتش موافقاً.

- أنت، يا أرتيوميتش، ستذهب مع تَمْغا. لا تُمضِ وقتك مشغولاً بالفِخاخ.

- لقد قمتُ بالكشف عليها. حين كان ما يزال...

- أذكر، أذكر...

احتار الكلب من هذه البلبلة، فرافق صاحبه في البداية، ثم راح يركض وراء الصيادين الآخرين. وحين اشتد به القلق نبح، وأخذ يجري في الثلج، وأخيراً جلس في الباب.

- هل سيطول بنا هذا الجري؟ سأل فيتيا.

- يكفي. همس نيكولاي نيكولايفتش. كان الآن قد تهيّأ، واختبأ في مكمنه. انتهى. أغلق الباب، والحقْ بالآخرين. فأنا سأنتظر هنا.

خيّم الهدوء على المكان حول البيت. تفرّق الصيادون، وابتعدوا كلٌّ في طريق. بعد لحظة من الحيرة سار ديما وراء فيتيا. فلم يقل له عمّه مع مَن عليه أن يذهب اليوم.

تساقط الثلج بهدوء. لم تهبّ الريح. وكانت الشمس تنعكس على كثبان الثلج وتبهر العيون.

استلقى نيكولاي نيكولايفتش على سريره، ونظر عبر النافذة إلى اللحم المعلّق على الحبل، إلى جثة الغُراب الأسحم الصغيرة المتجمّدة، إلى شجرة الصنوبر، وإلى التايغا وقد استيقظت وراء المرج.

تغطّى الصياد بكيس النوم وهو يقبض بيده اليمنى على بندقيته المهيّأة قريباً منه.

دبّ البرد في البيت، وتساقطت ندف الثلج على حافة النافذة، واشتدّ الصقيع.

كان الاستلقاء في وضعية واحدة مرهقاً، ولكن نيكولاي نيكولايفتش لم يسمح لنفسه بالحركة. ولم يكثر من شرب الماء، لكي لا يضطر للذهاب واستخدام الدلو. بل ولم يخطر على باله أن يأكل لقمة خفيفة، أو أن يتصفح كتاباً. واكتفى بإلهاء نفسه في أحيان نادرة بتصور حيرة الغُراب الأسحم الذي كان يراقب في هذا الصباح الصيادين وهم يركضون. «لعلّه ظنّ أننا هنا فقدنا عقولنا... من أين لهذه الأفكار أن يتسع لها رأسه الصغير! لقد أصاب من قال إن هذا الحيوان ليس لديه أفكار، بل

مجرّد صور مشوشة تدور. وإنه يفعل كل شيء بطريقة آليّة مثل دمية تُقرَن للأطفال. من قال هذا؟ قد أكون أنا قائله؟» وتنحنح الصياد بصوتٍ خفيض.

«نعم، لقد شبعنا ركضاً. هنا يعجز حتى الإنسان عن حساب ما مضى وما بقيَ من الوقت...»

كان نيكولاي نيكولايفتش يأمل بألّا يحالف الحظُّ أرتيوميتش والكلب. إذ أيّاً كانت الحال، فإن الكلبَ كلبُه، والآخرون يصطادون معه، ولكن ليت الحظ لا يحالف أحداً إن لم يكن شريكاً معه.

حدق الصياد عبر النافذة، وراح ينتظر.

تعب جسمه. تمنّى أن يتحرّك، أن يشرب جرعة ماء.

لم يترامَ إلى سمْعه أيّ صوت من الغابة. انتشر البرد في البيت، وبدأ يتجمّد. «من حسن الحظ أن الهواء ساكن، وإلا لغطّى الغرفة الثلج. نعم...هل تخيّلتُ يوماً أني سأراقب على هذا النحو غراباً؟ ليته كان غزالاً سيبيرياً، أمّا الغُراب الأسحم... شيء مضحك. أي والله».

لا بأس. تكفي طلقة واحدة، وتنتهي القصة كلّها...

«لو حكيتَها لأيٍّ كان، لسخر منك ضاحكاً».

تابع نيكولاي نيكولايفتش حديثه مع نفسه، تارة يكرِّر كلامه، وطوراً ينسى موضوعاً كان قد بدأه وهو يفكّر بموضوع جديد.

مع اقتراب وقت الغداء، بات في أحيان نادرة يحك الشعر النابت خشناً على خديه، ويغير وضع ساقيه، ولكنه برغم كل شيء كان يراقب بصبر.

«لا بأس. أنت اليوم حذِرٌ، ولكنك ستأتي غداً، فأستقبلك بطلْقة».

تذكّر الصيّاد كيف التقط في طفولته عصفوراً دوريّاً جريحاً. كيف رعاه وداواه. سمّاه كارلوشا. وكان يخفيه عن والديه. عصفور دوريّ صغير جداً. حتى إنه لم يكن يطير بعد. أراد نيكولاي نيكولايفتش يومها، وكان ما يزال ينادى باسم كوليا فقط، أن يحيطه بالعناية إلى أن يرى كيف سيطير بجناحين سليمين. فراح خلسة يقطِّع له اللحم. لو رآه والده لجلَده جلْداً يحرمه أياماً من النوم إلا على بطنه.

في البداية لم يكن كارلوشا يفهم العناية، ولا يفتح منقاره. فكان كوليا يضطر لفتحه عنوة بملعقة الشاي، ويدسّ له قطع اللحم الصغيرة عميقاً ليبتلعها. ثم صار الدوري الصغير يقترب منه طوعاً، وهو يفتح منقاره، يطلب الطعام.

صنع له كوليا قفصاً من الأسلاك وأعواد شجرة الحور، ووضع في داخله منشفة وإناء ماء كان كارلوشا يسبح فيه. واحتفظ كوليا به في الحظيرة. وحين لا يكون والداه في البيت، كان يسمح له بالتجول في الغرف، فيمشي كارلوشا قفزاً، باسطاً ريش ذيله وزاويتَي جناحيه. يلتفت برأسه صوب كوليا، وينظر إليه بعينٍ غمّازة، زرقاء. ينفض ريشه وينفشه، ويجمد. يموء بمنقاره كأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكنه لا يستطيع أن يتذكر كلمة واحدة من لغة البشر. وأخيراً، أطلق زقزقات غامضة يمكن أن تغدو بمرور الزمن نعيق غراب.

«كارلوشا...»

وأطلقه كوليا في الغابة، فرفض طويلاً أن يطير. ولكنه أخيراً طار.

«أين هو الآن؟ كان بوسعه أن يصل حتى إلى هذه الأماكن. فهل كنتُ عرفته، يا تُرى، لو رأيته؟»

بلل نيكولاي نيكولايفتش شفتيه الجافّتين. أنصت إلى أنفاسه. ألهى نفسه بحساب المبلغ الذي سيربحه من صيد السمّور. فكر بالرحلة المخصصة لصيد صغار عجْل البحر في الربيع.

«أين اختفيتَ، أيها الغُراب الأسحم الشيطان؟»

تعب الصياد من الأفكار المبلبلة الزائدة. غاص في السكينة العديمة اللون. لم تعُد تقلقه الذكريات ولا التنبؤات. جعله مرورُ السنين يزداد انزلاقاً إلى هذا الفراغ. تتناهى إلى سمْعه أصداء ألحانٍ لأغانٍ شبه منسية، أصواتٌ ما، ولكنها لا تلبث أن تزول.

حانت ساعة الظهيرة.

إذا فكرتَ بالأنفاس تغدو عالية وسريعة.

«أحقّاً أنه لن يأتي؟»

إطلاق النار عن السرير مريح عموماً. تثبّت السبطانة على مسند رأس السرير، وتسدّد بدقة. لا تحتاج إلى أيّ حاملٍ ثلاثي الأرجل للتثبيت... أمّا الانتظار وأنت مستلقٍ فليس بشيء يسرّ. تنتفخ اليدان، وتتعب الرقبة.

«كان يجب علَيّ أن أقول لهم ألّا يعودوا باكراً. إن فيتيا كسول جداً، وهو أوّل من سيأتي فيُفسد كلّ هذا الكمين».

عدّل نيكولاي نيكولايفتش وضع رجله اليسرى، فارتفع صرير السرير. عادة لا ينتبه إلى أن نوابضه مصدر ضجيج. لام الصياد نفسه.

إذا لم يأتِ في الغد أيضاً، يعني... عندها حتى لو حُرقتِ التايغا كلّها بقنابل النابالم، لن تتخلّص من هذا الغُراب الأسحم اللئيم. هذا مسرح، وليس صيداً».

ولكي يُلهي نفسه عن الانتظار، رفع نيكولاي نيكولايفتش بندقيته، وثبّتها على مسند رأس السرير ببطء، وبطريقة غامضة. ثم أحكم تصويبها. وتخيّل أن الغُراب الأسحم واقفٌ الآن على الحبل. يستعدّ لنقر لحمٍ ليس له. «طاااخ». تدوي طلْقة البندقية. يطير خردقُها عبر الشبّاك. يهوي الغُراب الأسحم مائلاً إلى الجانب. لا يصدر عنه أيّ صوت، ويسقط.

«انتهى!» يسمح الصياد لنفسه، فيقول كلمته بصوتٍ جهور، ثم يقهقه ضاحكاً.

ولثقته بنجاحه، لن يستعجل نيكولاي نيكولايفتش الخروج.

سوف يُلقي بقطعة خشب في الموقد، ويضع ماءً ليغلي، ويرتّب كيس نومه، وبعد ذلك يخرج من البيت.

سيكون الغُراب الأسحم مطروحاً على الثلج. حوله بقعُ دمٍ مخرّمة. سيكون منقاره مفتوحاً. عيناه السوداوان جامدتان. سيلمس الصياد بقدمه جثة الطائر الممزقة، ويبصق. «وانتهت الحكاية كلّها».

«شيءٌ مضحكٌ إن كان هذا كارلوشا حقّاً. نعم، مضحك... كلا، لا وجود لمثل هذه المعجزات. فما أكثر الغربان في التايغا. المهم هو أن الخردق لم يُصِبِ الزجاج الثاني، وإلا لصار الأمر مَضحكة. لن يصيبه. من هذه المسافة لن يصيبه».

اهتزّ الحبل.

كان الغُراب الأسحم واقفاً عليه، بالقرب من جثة ابنِ جنسه.

لقد تجمّد متشبّثاً بغصن هزيل. ثم أخذ بعناية يرتب جناحيه. فقد اطمأنّ.

أنشب أصابعه الثلاث السوداء ومخالبها المعقوفة بقطعة اللحم. وشرع بنقرها. نادراً ما كان يلتفت إلى التايغا. إنه الغُراب الأسحم نفسه الذي تكلم معه ديما في أول أيام الصيد. كبير، أحدبُ الرأس.

«هو نفسه...»

- ها أنتَ، أخيراً، قد وقعت، - همس نيكولاي نيكولايفتش من دون صوت.

خلَتِ السماء من الغيوم، وكانت مشرقة، واسعة، وتوقَّف هطول الثلج.

«كانوا يقولون إنك ذكي. لكنك غبيّ مثل دجاجة».

كان نيكولاي نيكولايفتش يتصرف بأناة.

زادت دقّات قلبه سرعة، وضاق تنفّسه. نسيَ الصياد ما يؤلم رجليه وبطنه، وتجمّد وهو يرتعش.

كان ممكناً أن تكون اللامبالاة قاتلة. راقب الطائر. وفي الوقت نفسه، كان يمدّ يده إلى البندقية ببطء، يخشى أن تُصدر نوابض السرير صريراً.

علِق طرف كيس النوم بزرٍّ على كُمِّ قميصه، فشدّه. كان لا بدّ من تخليصه بأناة.

كانت أنفاس الصياد قصيرة وسريعة.

- خدعوك، أيها الأحمق... خدعوك... ظننتَ أنك ذكيّ؟ من أين لك...»

حبس أنفاسه.

احتقنتْ عينه.

يشدّ يده بقوة.

فوّهة البندقية مصوَّبة عبر فتحة النافذة. تقوّست سَبّابته نحو الزناد الدبِق بسبب البرد.

«خذْها!»

مزّقت الطلقةُ سكينةَ البيت الشتوي، ولكنّ صدىً غريباً لفَّه قبل ذلك. لم يدرك نيكولاي نيكولايفتش ما جرى، وحين فهم، قفز مكشّراً بغضب.

الفصل الثالث عشر



ما إن استعدّ الصيادون للجري هذا الصباح، بين البيت الشتوي والغابة جيئة وذهاباً، حتى أخذ ديما عن حافة الشباك مرآة قديمة كان فيتيا يحلق لحيته قبالتها. كان يستمع إلى المزاح في أحاديث الرجال، وينظر إلى نفسه فيها.

جبينٌ عالٍ منحدر. غرّة طالت خلال الأسبوعين الأخيرين. حاجبان أشقران، نتأت منهما شعرة طويلة. أنف كبير مستقيم. إذا شدّ وجهه رافعاً جلده إلى أعلى رأسه حتى تتوتّر أذناه، يبدأ انحراف نظره بالظهور (يتباعد بؤبؤاه باتجاه الأذنين). كانت أمّه تقول إنه ورث هذا عن جده الأكبر الذي وِلِد في توفا. كانت كريستينا تضحك دائماً عندما يحرك ديما أذنيه، ويتعمّد تكوير عينيه كي يُظهِر تباعد بؤبؤيه. وكان ساشكا يضحك أيضاً.

راح الفتى يقلِّب المرآة، وكأنه ينظر إلى الشباك الصغير الذي يختبئ خلفه عالَمٌ لم يعرِفْه بعد. فتح فمه، وأسرع يراقب كيف يتحرك عظما وجنتيه بنعومة تحت الجلد. فغضّن أنفه، ورفع حاجبيه وهو يراقب كيف تتشكل التجاعيد، وكيف تنبسط. وتفحّص أسنانه التي بدأت تصفرّ، بعد أن بات لا ينظفها إلا نادراً هنا، في رحلة الصيد.

أراد ديما أن يجد جسمه كاملاً، أن يتجرّد من ثيابه، ويمرّ أمام المرآة لالتقاط تفاصيل جديدة فيه. كأنه لم يرَه من قبلُ، خلال سنوات عمره الأربع عشرة.

مَن كان ذلك الإنسان الواقف مقابل المرآة المغبّشة؟ كيف تكوّن مصيره؟ كيف سيكون بعد خمس سنوات، أو عشْرٍ؟ بعد ثلاثين عاماً أو خمسين؟ كيف سيتغيّر وجهه؟ كيف ستكون أفكاره؟ والأهمّ هو أيّ حياة سيختار، بمَ سيؤمِن، وبمَ سيضحّي من أجل إيمانه؟ وضع ديما المرآة مقلوبة على وجهها.

تنهّد.

مرة أخرى شعر بأنه وحيد، مثلما كان في أثناء حُلُمه عن عالَم يغطيه الإسمنت. الآن فقط، وهو مستيقظ، كانت وحدته أكثر عمقاً، وأكثر امتلاء بالأفكار. لا أحد لتتكلم معه، ولا شيء ليقال. لا مكان تذهب إليه. وبرغم ذلك، فسوف يتكلم. سوف يغذّ السير بحزم إلى الأمام. لأنه لا يستطيع فِعل ما يناقض ذلك. ما دام جسده الذي أنهكه العمر أو المرض، لم يتوقّف من تلقاء نفسه. عندها سينظر من جديد إلى المرآة. إلى هذه الكوّة التي اسودّت حوافّها. وسيتذكر هذا النهار، هذه الدقيقة. سيتذكر غُرابه الحقيقيّ أو المتخيَّل، الحيّ أو الميت. سيتذكره مرة أخيرة. ثم سينساه من أجل ألا يعود إليه مرة ثانية أبداً. وسيكون الهواء مفعماً بأريج الأرض الطريّ، وينتشر صخب المطر الأخير. وسيهبط على العيون آخر خيوط الغسق.

...قفز نيكولاي نيكولايفتش عن سريره. تعثّر وهو في كيس النوم، فكاد يسقط. واقتحم الباب مسرعاً، ففتحه بدفعة قوية من كتفه.

وخرج راكضاً.

ومرة أخرى كاد أن يسقط، فقد ارتخت رجلاه، ودبّ فيهما الوهن، بعد توقّفٍ عن الحركة طويل ومزعج.

هناك مَن أفزع الغُرابَ الأسحم قبل لحظة من إطلاق النار عليه. مَن صرخ، وفعل ذلك عمْداً.

أسرع نيكولاي نيكولايفتش نحو شجرة الصنوبر. لم يكن هناك أحد. كان على الثلج بعض قطرات دم. إذاً، فالغُراب الأسحم جريح. ولكن «اللئيم» لم يُقتل. أطلق الصياد من فمه المفتوح أنفاساً متقطعة، مصحوبة ببخار كثيف.

أنزلَ البندقية. إنه الغُراب الأسحم! يطير نحو الغابة. صوّب عليه. كلا، لا جدوى. بات سعيداً. لقد رحل.

«يا للشيطان! يا للشيطان! يا للشيطان!»

«مَن؟!»

كان نيكولاي نيكولايفتش قد عرَف مَن، ومع ذلك أخذ يتلفّت حوله متعجّلاً، يستطلع الحرش. كان يبحث عن خيَالٍ لاحَ له.

«ليتكَ تقع بين يدَيّ».

«أيها المسخ».

ريشٌ ودم. ولا شيء آخر. لقد كان هنا! الغُراب الأسحم اللعين كان واقفاً على الحبل، وكان ميتاً! لأن نيكولاي نيكولايفتش لا يخطئ الهدف. ليس من هذه المسافة. وبرغم ذلك، فقد رحل. بل وتسنّى له أن ينقر اللحم. مرة أخرى خدع الجميع.

«ولكن أين أنتَ؟! أيها الجرو، أيها اليرَقة التافهة...»

ارتجفَ. خنقَه الغضب. رأى.

«النجِس...»

على طرف المرج كان ديما واقفاً، ليس هيّناً أن تراه. ألقى على كتفيه رداءً أبيض بلا أكمام، ولبَد بالقرب من شجرة تنّوب غطّاها الثلج. لا يتحرّك. ولكنْ أكيدٌ هذا ديما. «ومَن غيرُه؟..»

ركض نيكولاي نيكولايفتش، وهو ينثر شتائمه، نحو ابن أخيه. أخذ يسقط في الثلج العميق، يتعثّر، يركع على ركبتَيه وينهض سريعاً، لا يحيد بنظره عن الفتى. كان الصياد خائفاً أن يختبئ ديما، فيكون لا بدّ من تعقبه عبر الغابة، إلا أن ديما ظل واقفاً في مكانه.

لم يخطُ خطوة واحدة. ظلَّ ينتظر.

كان يرتجف كلّه من البرد. ومن الخوف. لكن الخوف كان أقوى. كان هنا يراقب من زمان. فقد خدع فيتيا. قال له إنه ذاهب ليفحص فِخاخ أرتيوميتش، وإنه يذكر الدرب جيداً، وسيجده بسهولة. لم يسمح فيتيا لديما بالذهاب، خوفاً عليه من أن يضلّ الطريق. لعلّه شكّ بنيّة ديما. طبعاً، لقد شكّ، لذلك لم يشأ أن يسمح له بالذهاب. لكن ديما ذهب. قال إن عليه أن يُثبِت نفسه. إنه يريد أن يحصل على سمّوره الأول. فقد شارك أرتيوميتش نصْبَ الفِخاخ. وهذا يعني أنه شريكه في الصيد كذلك.

كان العم يقترب منه، ومع كل خطوة تزداد قامتُه طولاً. كان جسمه ينتفخ. ولكنَّ أكثر ما كبُر فيه هو يداه، فقد بدتا ثقيلتين، مصبوبتين من إسمنت، فيهما بدلاً من العروق والشرايين قضبان من حديد. تفتقت أكمامه وقفّازاه، فظهر من تحتها شعرُ وحشٍ غليظٌ، أصهب. وحده رأس الصياد كان صغيراً، لا يتناسب مع ضخامته، ووجهه مغضن، ينضح بالحقد، مشوّه بالغضب.

قال فيتيا بعض كلام آخر. وكان ديما يردّ عليه إيماءً وبصمت. كان لا بد من الإسراع. فالغُراب الأسحم يمكن أن يأتي في أي لحظة. وديما لا يعرف ماذا يفعل ليعرقل مهمة عمِّه. إلا أنه كان يفكّر بشيء واحد، بالعودة سريعاً إلى المرج.

بات الآن يسمع عمّه نيكولاي نيكولايفتش يشتُم ويستشيط غضباً، يرغي ويُزبِد. كل خطوة يخطوها تهزّ الأرض تحتها، ويتساقط الثلج عن الأغصان. يحوم حولـه سربٌ من نقاط سوداء تئز وتزعـق وتفحّ بأصواتٍ دقيقة، مسمومة. وعلى عنق نيكولاي نيكولايفتش الصغيرة يسيل القيح من خرّاجاتٍ قاتمة الصفرة. وانتفخت خرّاجات سوداء، وانفجرت، وراحت تقطر على الثلج صديداً أصفر ممزوجاً بالدم.

اكتفى ديما بأن صاح، مخاطباً فيتيا، إن كـل شـيء سيكون على ما يرام، وانزلق عائداً صوب البيت الشتوي.

تبِع خط الزلاجات فـي الثلـج. قد يكـون عمّه أطلق النار على الغُراب الأسحم. «كلا، وإلا كنتُ سمعتُ صدى الطلقة حتماً». بقيَ عليه أن ينتظر بقلقٍ وقتاً طويلاً. «نعم، وماذا أستطيع أن أفعل؟».

بات نيكولاي نيكولايفتش على درجة من القرب جعلت ديما يرى بخار أنفاسه عن بُعد عشر خطوات تقريباً. فقفز جانباً رغماً عنه. لَكأن عمّه صار فوق وجهه تماماً، دار في خلَده بسبب حدّة نظرته القاتمة.

تجمعت النقاط السوداء في نقطةٍ واحدةٍ نابضة، ارتفعت مثل موجةٍ فوق نيكولاي نيكولايفتش جاهزة في أيّ لحظة للانقضاض على الفتى، لتحرقه وتحرق أشجار التنوب القريبة منه، ثم تأتي على الحرش كلّه، والغابةِ كلّها بما فيها من سمامير وسناجب وغزلان منشورية.

انتظر ديما مجيء الغُراب الأسحم وقتاً طويلاً جداً، أياماً وأسابيع بطولها، وهو يراوح في مكانه، خائفاً أن يأتي فيتيا في طلبه. فقد كان يخاف أن يكشف العمّ جريمته بطريقة ما. تخدّرت رجلاه من البرد وطولِ الوقوف، ولم يبرح مكانه. كان يذكر أن كل شيء يمكن أن ينقضي بلمح البصر، ولا يجوز تفويتُ هذه اللحظة.

جاء الغُراب الأسحم خلسة، كأنه لم يأتِ، وإنما ظهر ببساطة. قبل هنيهة لم يكن على الحبل أحد، مجرّدُ بقعة سوداء. اجتاح الهياج ديما. لوّح بيديه. لبرهة كان يأمل أن يُفزِع الطائـر من غير أن يراه أحـد. أحسّ بكـل جسده أن آخر أملٍ يتبدّد، وعندها نسيَ الخـوف وصرخ. دوّت الطلقة. فزّ الغُراب الأسحم عالياً، ومال بجناحيه المضطربين، فاقداً توازنه، وهوى مثل قوس ثقيل صوب الغابة.

لقد أنقذه ديما.

في اللحظة المناسبة.

- ما هذا؟! توقف نيكولاي نيكولايفتش على بعد خمس خطوات يفتّش عن ديما. ماذا؟!

صرخ العمّ متماسكاً، ومتوتّراً معاً. غلظت قسَمات وجهه، صار قرمزي اللون، تضرّج حمرة. خفقت لوحـة البقـع السوداء فوقـه، رفرفـت، ملأت كل شيء بفحيح كريهٍ تقشعرُّ له الأبدان، تَسمَّم الهواء برائحة جثة عفِنة. وانتشرت عتمة كالغسق.

صمت ديما. لم يكن يعرف ماذا يمكن أن يقول.

انتفض نيكولاي نيكولايفتش. ومعه انتفضت وانتشرت أمواجاً ستارةُ النقط السوداء.

بيديه العملاقتين، الثقيلتين، تنكّب البندقية.

ظن الفتى أن الغُراب الأسحم حط وراءه، فـي مكان قريب. وأن عمّه يريد أن يطلق عليه النار. ولكنه أدرك فـي الحال أن العم يسدد عليه، على ديما بالذات. بسهولة، من دون إحساس بالألم، كأن هذا ما كان يحدث دائماً. اختفت النقاط السوداء. كلها حتى آخر نقطة. واختفت رائحتها التي تبعث على الغثيان. وهذا الفحيح. وتوقفت خفقات الهواء المسمومة.

رأى ديما أمامه إنساناً وحيداً، ضعيفاً. صغيراً وغاضباً. أصغر منه بما لا يقاس. بل وأصغر من الغُراب الأسحم. كل ذلك كان غبياً وسخيفاً.

كان الصغير نيكولاي نيكولايفتش واقفاً ومعه البندقية. يسيل من فمه المفتوح لعابٌ باقٍ على شفتيه بعد الصراخ. زال الخوف والشكوك، وأدرك ديما أنه كان محقّاً في كل ما فعل. لقد ارتجف الآن، ولكن بسبب البرد فقط. كان هادئاً، يعرف أنه انتصر في هذه المعركة غير المعلنة. أمّا عمّه فكان يعرف أنه خسر، وهذا ما جعله يزداد غضباً.

- إنك لن تطلق النار. قال ديما بصوت ثابت. ثم أردف: - إذاً، فلِمَ هذا كلّه؟

- لا؟!

شدّ العم قبضته على البندقية.

تنهّد، وألقاها على الثلج، ثم خطا خطوة إلى الأمام.

- تستطيع أن تضربني. حدّق ديما في عينيه. مرة أخرى.

توقّف نيكولاي نيكولايفتش.

- ثم تضربني مرة أخرى فيما بعد، ومرة ثالثة أيضاً.

رفع نيكولاي نيكولايفتش قبضتيه. قبضتيه الصغيرتين جداً، الغبيتين.

- هذا كل ما تستطيع أن تفعله.

بصق نيكولاي نيكولايفتش.

ظلّا واقفَين في هذه الوضعية متقابلين. وقتاً لا نهاية له. دهراً كاملاً. تجمّدا كأنهما مصنوعان من ثلج. وظلّا صامتين.

- نجِسٌ أنت، - قال عمّه أخيراً، وكزّ على أسنانه.

ثم استدار. رفع بندقيّته. نفض عنها الثلج، وقفل عائداً إلى البيت.

تريّث ديما قليلاً، ثم مضى في أثَره.

ركّب نيكولاي نيكولايفتش زجاج النافذة. جمع قطع اللحم المعلّق. ثم لَمَّ الحبل، وألقى بجثة الغُراب الأسحم الآخرِ جانباً. وبانتباه تخطّى بُقع الدم والريش المتناثر على الثلج.

في هذه الأثناء أشعل ديما الموقد. كان أكثر ما يشتهيه الآن هو أن يشرب كوباً من الشاي الساخن بالليمون، يبلُّ به مكعباً صغيراً من السكر، ثم يمتص بشفتيه ماءه. وأن يكرر هذا الفعل إلى أن يبدأ المكعب بالذوبان.

كانا يعملان صامتين، لا يتبادلان النظرات.

جمع نيكولاي نيكولايفتش اللحم، وذهب إلى الغابة. لم يشأ أن يبقى وحده مع ابن أخيه. وأخذ معه جثة الغُراب الأسحم.

ضمَّ ديما كأس الشاي الساخن بكفّيه، وجلس على سرير فيتيا. ابتسم. أحسَّ الآن بارتياح في البيت، كما في الغابة. لم يعد الفتى يحس بنفور من مهنة الصيد. كان في وقت ما ينظر إلى جلود السمّور بفرح، ثم بغضب، أمّا الآن فبهدوء. وكان هذا الهدوء مختلفاً. لم يكن فيه أثر من اللامبالاة. كان دافئاً، رحباً، يدعو إلى الحياة. لقد بدأ ديما للتو يتبصَّر بأفكاره، وها هو الآن يتمتع بها.

شرب الشاي وخرج. كان الجو صافياً، رائقاً. وكان الجو في التايغا قاعاً لحوضِ ماء مشمِس، كبير، مليء بذهبٍ شفّاف. كوّر ديما عينيه، ونظر كيف يسبح غبار الألماس في الهواء مثل ندفات ثلج صغيرة تتألّق تحت الشمس بقدْر من الخفة يجعلها تتطاير إثر أصغر هبة نسيم. خُيّل أن الزمن عاد إلى الوراء، والثلج يرتفع عن المرج إلى الوراء، إلى كثبان من الغيوم. والأشجار المقطوعة تنهض، والحيوانات المقتولة تعود إلى الحياة من جديد. ويتطلع كل شيء إلى البداية الواحدة

الوضّاءة، إلى تلك اللحظة من المعجزة الأصلية التي تفتّحت فيها زهرة الحياة أوّلَ مرّة في صحراء الكون الباردة.

أحسَّ ديما كيف تنهمر دموعه الباردة على خدَّيه الساخنَين.

- كلٌّ هذا من الشمس. همس وابتسم.

الفصل الرابع عشر



مرّت الأيام الخمسة الأخيرة من الصيد بهدوء.

كان كلٌّ يقوم بعمله. وكأنما على نحوٍ تلقائي، من دون نقاش، عاد كل شيء إلى مجراه، ولم يعد ديما يذهب إلى الصيد. وفي الغداة، بعد بقاء نيكولاي نيكولايفتش يحرس اللحم من الغُراب الأسحم، ظلَّ في البيت، من غير أن يطلب منه أحد ذلك. قام بما يجب من أعمال، فكنس أرض البيت، وغسل الأواني، وقطّع الحطب، وأشعل الموقد، وعند العشاء أعدّ طعام العشاء. وفي النهار ذهب إلى الغابة. جالَ فيها متسكّعاً، يبحث عن آثار الحيوانات، وينصت إلى زعيق الطيور النادر. كان رائقاً، لم يشعر بأنه وحيد.

منذ ذلك الحين لم يتبادل مع عمّه كلمة واحدة. يومها رجع نيكولاي نيكولايفتش أبكر من الجميع. أحضر معه سنجاباً كان قد اصطاده. رأى أرتيوميتش وفيتيا آثار الدم والريش، وأيقنا أن خطتهم نجحت، فانطلت الحيلة على الغُراب الأسحم وقُتل. إلا أن أرتيوميتش شعر بالأسف لأن العم تخلّص من الجثة:

- كان يجب أن نستخدمها طُعوماً. كان يجب أن نستفيد من هذا النجس بعد موته.

ضحك الصيادان وهما يمدحان نيكولاي نيكولايفتش. قالا إن عندهما الآن حكايةً تكفي لسنوات طويلة.

- خمسة أيام من الحراسة، فزّاعة، كلّ هذه الأشغال، من أجل أن نقبض على الغُراب الأسحم. تذكّر أرتيوميتش. ولكنْ تبيّن في النتيجة أنه حقاً كان يعدّنا! يا له من غشاش.

لم يناقشه نيكولاي نيكولايفتش. سلخ السنجاب، ونظّف البندقية، وأطعم تَمْغا. فسّر الصيادان صمته بانزعاجه من ضياع يومين من أيام الصيد. زِدْ على ذلك أن أرتيوميتش وتَمْغا اصطادا اليوم سمّورين، وهيهات أن يفرح العم لهذا الخبر.

كان ديما صامتاً أيضاً. لم يتدخّل في حديث الصيادين عن قتل الغُراب الأسحم.

في المساء، عندما تهيّأ الجميع للخلود إلى النوم، التقط ريشة. قرر الاحتفاظ بها ذكرى لكل ما جرى هنا.

في الصباح، حين خرج الصيادون إلى الصيد، ألقى نظرة على المخبَأ، فصَل قطعة من اللحم وعلّقها في الغابة للغراب، كي يعتذر له عن إصابته. كان يأمل ألا تكون خطيرة.

في اليوم التالي ذهب مسافة أبعد في التايغا، وشقّ لنفسه درباً ضيّقاً. ولكي لا يتوه، حاول السير بخط مستقيم لا يحيد عنه، ثم سلكه في طريق العودة.

في اليوم الثالث ذهب ديما بعيداً في الغابة، فرأى آثار سمّور. تذكر كل ما تعلمه من أرتيوميتش ونيكولاي نيكولايفتش. تفحّص الآثار وهو يبتسم. تأكد من متانتها، تخيّل كيف وماذا فعل الحيوان في هذا المكان. ثم اختبأ وشرع ينصت إلى الغابة الساكنة.

هبط إلى سهْلٍ فيضيّ. طالعته أشجار تزينها تنانير من جليد. لم يرَ لهذا مثيلاً من قبلُ أبداً. مع قدوم الصقيع الجليدي كان هذا السهل مغموراً بماءٍ تحوّل إلى جليد. وبمرور الوقت انخفض مستواه، فتصدّعت قشرة الجليد، وتشققت، إلا أنها ظلت مثل ضفدع ممزّق على جذور أشجار الصنوبر. كانت تغطي أعلى السهل كمّياتٌ من الثلج، وعلى الأشجار الآن، على ارتفاع مترٍ عن الأرض، بدا جمال التنانير الثلجية البياض، مثلَ أغصان ثبّتتها كاميرا سينمائية، تشبه شناشيلَ

مخروطية، أهدابُها من جليد. أطلق ديما على هذا السهل الفيضي صفة الراقص. وبقي هناك وقتاً طويلاً لا يريد أن يغادر. يتمشّى بين الأشجار، ويحرص على أن يلامس زينتها غير العادية.

حين عاد الفتى إلى الغابة ملأته فرحة دافئة، إذ رأى على شجرة تنّوب خيَالاً يعرفه. أذنان مستديرتان وظهرٌ منحنٍ. إنه سمّور. تدلُّ الآثار التي تُفضي إلى الشجرة على أنه سمّورٌ ذكَر. استطاع ديما أن يتعقّب أثره حتى عشّه تماماً. كان العش مخبّأً في تجويف الشجرة. أسرع وألقى فيه بحفنة جَوزٍ سرقه من فيتيا. كان التجويف منخفضاً جداً، وربما لم يكن يعيش فيه أحد؛ أو ربما لجأ السمّور إليه مؤقتاً، لا أكثر. لكنّ ديما كان واثقاً من أن الجوز الذي ألقاه هناك لن يذهب سدى.

رجع إلى البيت الشتوي مبتسماً. خطر له أنه يريد أن يعرف عن الطبيعة أكثر ما يمكن، ولكن ليس من أجل أن يتسلّط على الطبيعة بهذه المعرفة. لأن السلطة هي الوحدةُ دائماً. أراد أن يعرف من أجل أن يفهم، ويصبح أكبرَ ليحيط نفسه بتنوّع الحياة البديع.

يشعر الإنسان بالوحدة. فقد وجدنا أننا نعيش على جزيرة غير مأهولة، بين أمواج هذا الكون الباردة. يحيط بنا أصدقاء، لكنهم أضعف منّا، وقد جعلناهم عبيداً لنا. نأكل، ونجبرهم على العمل. نعيش مرفَّهين. شبعانين. ولكننا وحيدون. مع أن لنا من القوة والعقل ما يكفي لأن نعيش معاً، متساوين، ببحبوحة وسعادة. أتساءل عمّا قد تقوله أمّي بهذا الخصوص؟

شجَّعت هذه الأفكار ديما، فتصالح تدريجياً مع الصيادين. عموماً، كلُّهم ليسوا أغبياء. حتى عمّي... إنهم عاديون.. كلّا، ليسوا سيّئين. كل ما في الأمر أنهم لم يكونوا محظوظين ليصبحوا جيّدين. كانت الحياة تطلب منهم شيئاً آخر. وكان عليهم أن يجيبوا على سؤالها. ولم يكن لديهم قوة للتفكير بأيّ شيء.

ظل ديما يومين لا يخالط أحداً، ثم انسجم مع فيتيا على نحوٍ ما. شاركه اللعب بالورق، واستمع إلى حكايته عن التايغا. أحياناً، كان ينضمّ إليهما أرتيوميتش.

قدّم فيتيا لديما واحداً من الكتب الممزّقة، كان قد تسلّى به وهو يكمن للغُراب، ونصحه بقراءته. أُعجِب ديما بالكتاب، وأدهشته فيه هذه السطور المتغيرة اللون:

«نحن نتسامح مع الحيوانات بسبب ما يبدو لنا فيها من نقص. نتصور أن مصيرها مأساوي، محكوم بدرجة من التطوّر أدنى، بالمقارنة مع الإنسان. إننا نرتكب خطأ غير معقول. إذ لا يجوز أن نطلق أحكاماً على الحيوانات وَفقاً لمعايير البشر. فهي تعيش في عالم يفوق عالمنا قِدَماً وكمالاً، كمخلوقات كاملة وتامّة، تتمتع بطيف من المشاعر فقَدها الإنسان منذ زمن بعيد.، أو هي مشاعرُ يمتنع عليه إدراكها، لأن الحيوانات تعيش في عالم من كلامٍ لا نسمعه أبداً».

هزّ ديما رأسه، متعجّباً من هذا التوافق: إذ إن ما قرأه يعبِّر بقدْر كبير من الدقة والوضوح عن أفكاره التي لم تتبلور بعد. فقرر أن يعرف حتماً اسم هذا الكتاب بعد عودته إلى المدينة. ثم ألقى نظرة على الصيادين، ودسَّ ما تبقّى من الكتاب في حقيبته خفيةً، لكي لا يتسنّى لأحد أن ينتزع منه صفحاتٍ أخرى.

- ليتنا نعود إلى هنا في الربيع، لنرى كيف يستيقظ كلُّ شيء من سُباته الشتويّ، ـ قال الفتى.

- نعم، هذا شيء يستحق المجيء. أومأ فيتيا.

- إذاً، سأعود. ربما لا أعود إلى هنا، ولكن إلى التايغا. بالنسبة لي، هذه بداية كل شيء.

- هذا كيد. تضاحك فيتيا، غيرَ فاهم جيِّداً عمّا يتكلّم ديما.



تعقيبان

1

لم يولِ الإنسانُ الطبيعةَ اهتماماً حقيقياً أبداً. إننا نحتاج إلى الأنهار الحية، والهواء النقيّ، والمناخ الرائق. أمّا الطبيعة نفسها فلا تأبه لِما فيها من نظافة أو تلوّث. كلُّ ما نلوِّثها به مأخوذ منها، ولا نستطيع أن نأتيَ بجديد. لا نستطيع أن نفعل إلا توليف الأشياء وفقاً لنظامٍ آخرَ مناسبٍ لنا، لا أكثر. الطبيعة تعرف أشكالاً مختلفة. إنها تصبُّ على نفسها الأحماض، وتسمِّم نفسها بالغازات إلى درجة نحن عاجزون عن بلوغها. إننا نأخذ منها حتى النفايات النووية. وليس لدينا مصدر آخر. وهكذا، فإن الإنسان لا يهتمّ إلا بنفسه، بالظروف التي يعيش هو نفسه فيها. وكلُّ من يحب الطبيعة يحبّ الإنسان قبل كل شيء. نحن حريصون على تنظيف بيوتنا من الوسخ، ولكنّ هذا لا يعني أننا نفعل ذلك من أجل البيت نفسه.

مهمٌّ أن نأخذ من الطبيعة عموماً الشيءَ الرئيس فيها وهو الحياة. إننا نهتم بالعالم المحيط ما دمنا نساعد الإنسان وجيراننا الحيوانات البرية، ونعمل على تحسين الحياة، فهي المعجزة الرئيسة بين كل ما نعرفه من معجزات.

عندما نلقي في النهر أخطر سمومنا الكيميائية، يكون فعلنا هذا طبيعياً. ما يؤخذ من الطبيعة يعود إليها. لا تتأذّى الطبيعة، بل نحن. تستطيع الطبيعة الاستمرارَ في أشكال أخرى، أمّا نحن فموجودون في شكل وحيدٍ من أشكالها نسمّيه «نظيفاً» و«عذريّاً».

2

الصيد بحثٌ عن الحيوانات والطيور البرّيّة، وتعقّبُها بهدف قتلها من أجل الحصول على جلودها، ولحمها، وغير ذلك. وأيضاً من أجل التسلية، أو بدوافع رياضية. لقد أباد الإنسان، خلال القرنين

الأخيرين، عشرات من أنواع الحيوانات وفصائلها، كالذئب الجُرابي، وثعلب الفوكلاند، والظبي الأزرق، ونِمْر جاوا، والفهد الزنجباري، وغيرها الكثير. ويمكن أن نتذكّر أيضاً الحمَام الزاجل من أميركا الشمالية. إليكم ما كتبه عالم الطبيعة الإنجليزي جيرالد داريل:

«وَفقاً لإحصائيات متواضعة كان بعض أسراب الحمام الزاجل يتألف من مليارين ومئتين وثلاثين مليوناً ومئتين واثنين وسبعين ألفَ طير (2230272000) . عندما كانت هذه الطيور تحط على الأشجار للمبيت، كانت الفروع تتكسّر تحت ثقلها. من هنا جاء القول «إنها كانت كثيرة». ولمّا كانت كثيرة، شرعوا يقتلونها بأفظع الطرق. كانوا يجمعون بيضها، ويقتلون فراخها، لأنها كثيرة العدد. وقد ماتت آخر حمامة زاجلة وهي عذراء في حديقة الحيوانات في سينسينيا عام 1914».

وهكذا انقرض واحدٌ من أكثر أنواع الطيور انتشاراً في غضون بضعة عقود من السنين. لقد أبيد بكامله. لم يبقَ أيّ طير منه. ولا نستطيع اليوم أن نتكلم عن جمال أيٍّ من طيور الحمام الزاجل إلا بالاعتماد على الرسوم الملوّنة.

1. عبارة لاتينية غير تقليدية، اعتاد الكاتب أن يضعها في مستهل كتبه وتعني «في ركن مع كتاب». ↑

2. توارباس- أحذية مصنوعة من جلد يكسوه الوبر. ↑

3. لاباز- سقيفة خشبية في الغابة، تشبه الكوخ. تنصَب عالياً بين الأشجار لحفظ المؤن، وحمايتها من الوحوش. ↑

4. «counter strikes» - لعبة قتالية في الكمبيوتر تستطيع أن تشارك فيها إلى جانب إرهابيين أو ضدهم. - م ↑

5. «Headshot» كلمة إنجليزية تعني «طلقة في الرأس»، تستخدم في ألعاب الكمبيوتر للدلالة على قتل الخصم برصاصة في الرأس. ↑

6. لويس بوسينار (1847- 1910) كاتب فرنسي اشتهر برواياته المليئة بالمغامرات الخطيرة والمشوِّقة. - ن. ن. ↑

7. فرع من العلوم الطبية يدرس أسباب نشوء الأمراض المعدية، الأوبئة، وقوانين انتشارها وسبل مقاومتها. - م. ↑

8. نسبة إلى منطقة منشوريا الغنية بغاباتها وثرواتها المعدنية. مساحتها نحو مليونين وأربع مئة ألف كم2. تقع شمال شرق الصين، ويتبع جزء منها لمنغوليا، وجزء آخر لروسيا. - ن. ن. ↑

9. البليد بن البليد. - م. ↑

10. نسبة إلى جمهورية بورياتيا المنغولية في الشرق الأقصى من روسيا الفيدرالية. - ن. ن. ↑

11. نسبة إلى جمهورية كازاخستان في آسيا الوسطى. - ن. ن. ↑

12. الطلقة الخلّبيّة: رصاصة تطلق فتنشر خطاً ضوئياً في سماء المعركة كإشارة لها معنى يتّفق عليه سلفاً. وليست رصاصة للقتل. (المراجع) ↑

13. توغريك اسم العملة النقدية في منغوليا. - م. ↑

14. نقول بالعربية: أراهنك على قطع يدي، أو أقطع يدي إذا... أمّا الروس فيراهنون على السنّ، ربما تيمُّناً بالقول: «السن بالسنّ...». - ن.ن. ↑

15. بيثياس (نحو 380-310 قبل الميلاد). تاجر إغريقي وجغرافي ورحّالة حول البحار. - ن. ن. ↑

16. أفاناسي فِت (1820-1892) شاعر روسي مرموق، مترجم، وعضوٌ في أكاديمية بطرسبورغ منذ عام 1886. - ن. ن. ↑

17. الكتاب الأول رواية هنري بيستون «بيت صغير في آخر الدنيا»، والثاني رواية فارلي موئيت «حوتٌ للذبح». - ن. ن. ↑

Table of Contents

Start